

الفصل الرابع

عقلية هتلر وجذور الرايخ الثالث

- ١ -

اراد هتلر تسمية كتابه "أربع سنوات ونصف سنة من النضال ضد الأكاذيب والغباء والجبن" لكن (ماكس أمّان) مدير مطبوعات النازي الصلب الرأس الذي اضطلع بمهمة طبعه ونشره ثار على ثقل عنوانه الطويل الذي يعرقل بيعه واختصره الى (كفاحي Mein Kampf) وكان (أمّان) شديد الحبيبة لمحتواه فقد توقع أولاً قصة عنصرية شخصية بروي فيها هتلر حكاية نهوضه من عامل حامل الإسم في قيينا، الى شخصية عالمية ذائعة الصيت. فلم يكن فيه كما رأينا- غير القليل من السيرة. ومنى مدير الأمور المالية النازي نفسه أيضاً بقصة حقيقية لإنقلاب مشرب البيرة مع الدراما والمخاتلات التي صحبتها مما يجعلها تجتذب القراء وتزيد من مبيعات الكتاب كما كان واثقاً. لكن هتلر كان أمضى ذكاءً من هذا في تلك المسألة وفي وقت كانت خطوط الحزب قد هوت إلى حضيض لا يدع له مجالاً لنبش الجمر القديم^(١). لذلك تكاد لا تجد كلمة واحدة عن الانقلاب الفاشل في (كفاحي).

طبع الجزء الأول في خريف ١٩٢٥. ويضمّ زهاء أربعمائة صحيفة. وجعل ثمنه إثنا عشر ماركاً (ثلاثة دولارات). وهو تقريباً ضعف ثمن أغلب الكتب التي تصدر في ألمانيا حينذاك. ولم يصبح أوسع الكتب انتشاراً حال صدوره. لقد فخر (أمّان) أن ما بيع منه في السنة الأولى ثلاثاً وعشرين ألف نسخة وأن كمية البيع استمرت في الأرتفاع - وهو زعم كانت الدوائر المعادية للنازيين تشك في صحته.

وكان لضبط الحلفاء في ١٩٤٥ سجلات حسابات (إير ثرلاگ Eher Verlag) دار النشر النازية، الفضل في ظهور الحقائق عن المبيعات الفعلية لـ(كفاحي). بيع من الكتاب في ١٩٢٥ (٩٤٧٣) نسخة. وتناقص عدد المبيعات في السنوات التالية الثلاث بإطراد. فوصلت الى ٦٩١٣ نسخة في عام ١٩٢٦ وهبطت الى ٥٦٠٧ في ١٩٢٧ ولم يبع منه غيسر ٣٠١٥ في ١٩٢٨، على أساس مجلدين. وارتفع الرقم في ١٩٢٩ الى ٧٦٦٤ نسخة. وتساعد بصعود نجم الحزب النازي في ١٩٣٠

١-كتب في ختام المجلد الثاني يقول: "من العيب أن تفتح جراح كادت تندمل... من العيب التنديد برجال هم في اعماق قلوبهم - مخلصون لأوطانهم لا يقلون حباً بها عن الآخرين. من العيب التحدث عن جريمة رجال اساءوا الفهم أو فشلوا في إدراك السبيل المشترك" ويبدو هذا تسامحاً غير متوقع من شخص حقود كهتلر، تجاه أولئك الذين سحقوا ثورته وأرسلوه الى السجن. وبالنظر الى ما حصل فما بعد لـ(كاهر) والآخرين الذين خذلوه، كان ذلك أكثر من مظهر لقوة الإرادة وضبط النفس مؤقت لأسباب تكتيكية. وعلى اية حال، فقد أبى أن يتهاثر ويتراشق التهم.

عندما ظهرت طبعة رخيصة منه بمجلد واحد ثمنه ثمانية ماركات. فبلغ ما بيع منه ٥٤٠٨٦ نسخة، وانخفض الرقم في السنة التالية إلى ٥٠٨٠٨ نسخة. ثم قفز البيع في ١٩٣٢ قفزة واسعة إلى ٩٠٣٥١ نسخة.

وباتت حقوق امتياز هتلر فيه - وهي مصدر دخله الأساسي منذ ١٩٢٥ فصاعداً - تدر عليه دخلاً كبيراً إذا ما قيست بالسنوات السبع السالفة. على أن هذا لا يعد شيئاً مذكوراً إذا قورن بدخله منه، ابتداءً من العام ١٩٣٣ عند صيرورته مستشاراً. ففي أول سنة بيع من (كفاحي) مليون نسخة وحصل هتلر على نسبة من الأرباح بلغت أكثر من مليون مارك (بعد أن زادت من ١٠٪ إلى ١٥٪ في الأول من كانون الثاني ١٩٣٣) مما جعله أكبر المؤلفين دخلاً في ألمانيا ومليونيراً لأول مرة^(٢).

وباستثناء الكتاب المقدس، لم ينتشر كتاب خلال الحكم النازي كما انتشر (كفاحي). تشتريه ربات البيوت ليسعرن بالأمان حين يوجد بين اثاث الدار. ويهدى نسخة منه للعريسین بمناسبة زواجهما بصورة تكاد تكون إلزامية إن لم تكن سياسية أيضاً، ويكاد كل فتى يتسلم نسخة منه عند التخرج في أي مدرسة. ووصل عدد ما بيع منه في ١٩٤٠ أي بعد مرور سنة واحدة على نشوب الحرب العالمية الثانية ما يربو على ستة ملايين في ألمانيا وحدها^(٣) وقراءته ليس شرطاً أو فرضاً على كل شارٍ ألماني. فقد سمعت عدة نازيين جريئين يشكون صعوبة مطالعته ويقرّ عدد ليس بالقليل، سرّاً، أنهم لم يستطيعوا ارغام انفسهم على انهاء صفحاته الإثني والثمانين والسبعمئة الحاوية الجوفاء. لكن من المسلم به أن كثيراً من الألمان غير النازيين كانوا قد قرأوا محتواه قبل ١٩٣٣. وإن الساسة الأجانب في سائر انحاء العالم تتبعوا ما جاء فيه بدقة عندما كان في الزمن، ببقية. فربما انتبهوا وأنقذوا العالم وألمانيا من الكارثة. يمكنك أن توجه الى هتلر ما تشاء من تهم لكنك لا تستطيع أن توجه اليه تهمة واحدة، تهمة استغفالك أو مفاجأتك. إذ لا وجه لتهامه بعدم ايضاحه (كتابة)، الشكل الذي يريده لألمانيا إن قدر له تسلم مقاليد الحكم وهيئة العالم الذي يريد أن يصورها بعد الفتح الألماني. ان خارطة تصميم الرايخ الثالث، وأكثر منها النظام البربري الذي طبقه في أوروبا المحتلة أيام النصر قد خطط في دفتي هذا الكتاب، بتفصيل واسهاب وقسوة تقشعر منها الابدان. رأينا ان آراء هتلر الأساسية تكونت في السنوات الأولى من عقده الثالث في فيينا. وهو يعترف بأنه لم يغير كثيراً منها^(٤) فيما بعد وبتركه النمسا الى ألمانيا في ١٩١٣ وهو في الثالثة والعشرين كان الشعور القومي الألماني يلهب كيانه ويملك عليه مذاهبه وفي نفسه كره عميق للديمقراطية والماركسيين واليهود مع إيمان ثابت لا يتزعزع بأن العناية الالهية اختارت الأريين - ولا سيما الألمان - ليكونوا أسياد العالم.

وبسط في كفاحي وجهات نظره. واتخذها حلوياً نهائياً لمشكلة إعادة ألمانيا المغلوبة المضطربة الحال

٢- كان لهتلر كأى كاتب آخر متاعبه مع محصل ضريبة الدخل. على الاقل قبل صيرورته دكتاتوراً كما سنرى.

٣- الأرقام مقتبسة من دراسة عن مؤسسة اپرواخ للنشر وأحوالها المالية بقلم الأستاذ اورون هيل Oranjomes Hale نشرت في المجلة التاريخية الأمريكية في عدد تموز ١٩٥٥ بعنوان "أدولف هتلر دافع الضريبة".

٤- انظر ما سبق.

الى مكان تحت الشمس أعظم بكثير مما كانت تحتله في السابق، ليس هذا وحده بل إقامة نوع جديد من الدولة، تبني على القومية والعنصر وتحتضن كل الألمان الذين يعيشون خارج الرايخ وتقيم دعائم دكتاتورية الزعيم المطلقة (أي نفسه) مع زمرة من الزعماء والقادة يتلقون أوامرهم من الأعلى وينقلونها الى قادتهم. على ذلك فان الكتاب يتضمن أولاً تخطيطاً لدولة ألمانيا المقبلة. والوسائل التي تتوسل بها لتصبح يوماً ما "سيدة العالم" كما اثبتته في آخر صفحة منه ويحوي ثانياً وجهة نظر أو مفهوم للحياة، أو Neltanschauung باستخدامنا كلمة هتلر الألمانية المفضلة. هذه النظرة في الحياة تبدو لعقل إنسان القرن العشرين السوي هدياناً عجبياً اخترعه مجنون فح لم يصب من الثقافة شيئاً. وما جعلها على جانب من الأهمية اعتناق هذه الملايين من الألمان لها الى حد التعصب. وإن كانت قد أدت فعلاً إلى دمارهم التام فهي كذلك أدت الى دمار ملايين عديدة من الأبرياء الأبطال من أبناء البشرية داخل ألمانيا، وخارجها على الأخص.

والآن كيف يتسنى لدولة الرايخ الجديد استعادة مركزها بين القوى الكبيرة في العالم ثم كيف تمضي في سبيلها لسيادة العالم؟ أطال هتلر الفكر في هذا السؤال. في الجزء الأول الذي كتب معظمه أثناء فترة سجنه سنة ١٩٢٤ ثم عاد اليه بكثير من الإسهاب والاطالة في الجزء الثاني الذي فرغ منه في ١٩٢٦.

بالدرجة الأولى يجب أن يصفى الحساب مع فرنسا "عدو الشعب الألماني القتال الذي لا يرحم" قال أن هدف فرنسا كان دوماً أبقاء "ألمانيا ممزقة مقطعة الاوصال... نثاراً من الدول الصغيرة" وإضاف يقول: "وهذا منطقي ولو كنت فرنسياً... فلن أعمل ولا يمكنني أن أعمل خلاف ما عمله كليمنصو" لذلك يجب أن تحصل تصفية حساب فعالة مع فرنسا... كفاح حاسم ختامي... وعندئذ فقط سنكون قادرين على إنهاء الخصام الأبدي غير المثمر ابداً، بيننا وبين فرنسا: مقترحين مسبقاً بالطبع أن ألمانيا ترى في الواقع أن سحق فرنسا هو الوسيلة الوحيدة التي ستعينها أخيراً على فسخ مجال التوسع في أماكن أخرى أمام الشعب الألماني^(٥).

التوسع في أماكن أخرى؟ أين؟ بهذا الأسلوب يصل هتلر الى نواة آرائه في سياسة الألمان الخارجية التي حاول انتهاجها بكل امانة عند أصبح حاكماً للرايخ. فقال بكل صراحة أن على ألمانيا أن تتوسع في الشرق - في الغالب حساب على روسيا.

واقاض هتلر في شرح هذه المسألة مسألة المجال الحيوي (Lebensraum) في الجزء الأول من كفاحي. وهو موضوع ظل يراود ذهنه الى آخر نسمة من حياته. قال أن إمبراطورية هوهنزولرن اخطأت في الحصول على مستعمرات في افريقيا "إن سياسة توسيع التخوم باضافة الارض لاتتم في (الكامبيرون) بل في أوروبا لا غيرها في هذا الزمن" لكن تربة أوروبا قد شغلت بالبشر منذ وقت طويل. وهذا مايسلم به هتلر "لكن تربة أوروبا هذه لم تحتجزها الطبيعة لتملكها لأي شعب معين أو أمة في المستقبل من الزمن. بالعكس، فهذه التربة هي للأمة التي تملك القوة على حيازتها" ماذا

٥- المقتبسات ما بين قوسين من كفاحي الص ٦١٩، ٦٧٢، ٦٧٤

سيكون الموقف لو اعترض واضعو اليد الحاليون على ذلك؟ "عندئذ يسري مفعول قانون حفظ النوع؛ وما لا يمكن أن يعطى بالأساليب الودية. ينزع عنوة واقتداراً بقبضة اليد^(٦) واغتنام اراض جديدة - ليس ممكناً إلا من ناحية الشرق... فان تُشدت أرض في أوروبا فمن الممكن الحصول عليها واسعةً متراميةً على حساب روسيا فحسب وهذا يعني أن الرايخ الجديد سوف يلجأ للمرة الثانية الى سلوك سبيل (الفرسان التوتون) القدمات للحصول بحدّ السيف الألماني على حقول للمحراث الألماني ولخبز الأمة اليومي^(٧) وعاد هتلر الى الموضوع في الجزء الثاني كأنما كان شرحه في الجزء الأول يشويه غموض: إن مجالاً واسعاً كافياً على هذه الأرض يضمن للأمة حرية الوجود... وبدون أي إعتبار للتقاليد والأغراض يجب [على الحركة القومية الاشتراكية] أن تجد في نفسها الجرأة لتجمع شعبنا وتعيء قوته للتقدم في الطريق الذي يؤدي بهذه الأمة الى الخروج من مجال عيشها الضيق الحالي الى أرض جديدة وتربة جديدة... إن الحركة القومية الاشتراكية يجب أن تناضل لمحو عدم التكافؤ بين كثافة نفوسنا ومساحة أراضيها. إذا ما نظر الى الأخيرة بوصفها مصدر طعام فضلاً عن كونها قاعدة أساسية للقوة السياسية... علينا أن نظل متمسكين بأهدافنا بشدة... حتى نحصل للشعب الألماني على الأرض والتربة التي يستحقونها^(٨).

كم يحتاج ويستحق الشعب الألماني من الأرض؟ يقول هتلر مزدرياً أن البرجوازية "التي لا تملك فكرة سياسية خلاقة بخصوص المستقبل القومي" كانت وما فتئت تنادي بإعادة حدود ألمانيا للعام ١٩١٤. "إن طلب إعادة حدود العام ١٩١٤ هو سخف سياسي، دعوته وآثاره يجعلانه يبدو أشبه بالجريمة، وبغض النظر عن أن حدود الرايخ في ١٩١٤ لم تكن منطقية أبداً. فهي في الواقع ليست كاملة من ناحية إستيعابها كل الشعب الألماني وليست معقولة من ناحية الوضع الجغرافي العسكري. ولم تكن نتيجة لعمل سياسي مدروس لكنها حدود مؤقتة مائعة في خضم الكفاح السياسي الذي لم ينته بعد. بهذا الحق نفسه وبأعظم الحق في مسائل كثيرة تجابهنا - علينا أن نلتقط (سنةً نموذجيةً) أخرى للتاريخ الألماني. وان نعلن أن إعادة الحال على ماكان عليه في تلك الأزمان هو الغاية في السياسة الخارجية^(٩).

و(سنة هتلر النموذجية) قد تعود بنا الى ما قبل ستمائة سنة تقريباً عندما كان الألمان يدفعون السلاخ الى الشرق. يجب أن يستأنف الإندفاع نحو الشرق "نحن اليوم نعدّ ثمانين مليون ألماني في أوروبا! وهذه السياسة الخارجية لا يمكن ان تعد صائبة. إلا بوجود مائتين وخمسين مليون ألماني في هذه القارة بعد قرن من الزمن"^(١٠). كلهم ضمن حدود الرايخ الجديد الموسع.

شعوب أخرى يجب أن تفسح المجال لهذا العدد الكبير من الألمان - فمن هي هذه الشعوب الأخرى؟

٦- المرجع السالف الص ١٣٨-١٣٩.

٧- المرجع السالف ص ١٤٠.

٨- المرجع السالف الص ٦٤٣، ٦٤٦، ٦٥٢.

٩- المرجع السالف ص ٦٤٩.

١٠- المرجع السالف ٦٧٥.

"ولهذا سنقوم نحن القوميون الإشتراكيين... بوصول ما انقطع قبل ستمائة عام. نوقف الحركة الألمانية الدائمة الى الجنوب والغرب ونلقت أنظارنا الى أرض الشرق."
"وإن تكلمنا عن أرض في أوروبا اليوم. فبإمكاننا أن نضع روسيا ودويلات حدودها التابعة في أذهاننا بصورة رئيسة"^(١١).

ويرى هتلر ان القدر كان يماليء ألمانيا بهذا الخصوص. فقد سلم روسيا للشيوعيين الذين - كما يقول- يقومون في الواقع بتسليمها الى اليهود. وهو يهتف قائلاً "ان الإمبراطورية الجبارة في الشرق قد تمّ نضجها للإنتهيار ونهاية حكم اليهود لروسيا هو ايضاً نهاية روسيا كدولة". ويستطرد هتلر بأن سهوب الشرق العظمى يمكن الاستيلاء عليها بسرعة وسهولة عند إنتهيار روسيا دون الاضطرار الى تضحية دم ألماني كثير.

أوسع أحد ان يحتج بأن المخطط الهندسي المبسوط هنا بإعتباره غير دقيق أو واضح؟ سيقضى على فرنسا. لكن هذا أمر ثانوي بالنسبة الى إندفاع الألمان نحو الشرق. فبالأول يستولى على الأراضي المجاورة من ناحية الشرق، التي يسكنها الألمان منذ القديم. فما هي؟ لاشك انها النمسا وارض السوديت في چيكوسلوفاكيا والمجزء الغربي من بولندا بضمنه الدانزك. وبعدها يأتي دور روسيا نفسها. فلماذا اذن اصيب العالم بدهشة عندما شرع المستشار هتلر بعد سنوات قليلة في تحقيق هذه الغايات؟

وعن طبيعة شكل الدولة النازية المقبلة. كانت آراء هتلر في (كفاحي) أقل وضوحاً. على انه أعلن بجلاء انه لن يأخذ "بالسخافات الديمقراطية" وأن الرايخ الثالث سيحكم بمبدأ الزعامة Fuehrer prinzip واعنى أنه سيكون حكماً دكتاتورياً. وليس ثم شيء عن المسائل الإقتصادية في الكتاب تقريباً لأن موضوع الإقتصاد يضجر هتلر وهو لم يهتم بمحاولة تعلم شيء منه أكثر من التلهي بأراء (كوتفريد فييدر) الجوفاء، ذلك الدجال الذي يعارض في "رق الفائض". إن ما كان يهتم به هتلر هو السلطان السياسي. أما الإقتصاد فيمكن أن يدبر أمره تديراً تلقائياً.

"الدولة لاتلتزم أبداً بمفهوم محدد إقتصادي. ولا بتطور إقتصادي... الدولة هي جهاز قومي. وليست منظمة إقتصادية... إن قوة الدولة الكامنة لاتتلائم مع الرفاه الإقتصادي المزعوم إلا في أندر الحالات. ويبدو في ما لا يحصى من الحالات أن الرفاه دليل على اقتراب الدولة من الإنتهيار... وتبرهن بروسيا بدقة عجيبة على أن ما يبني الدولة ليست الميزات المادية وحدها بل الفضائل الروحية أيضاً وبحماية من هذين فقط تزدهر الحياة الإقتصادية. عندما يكون في ألمانيا إندفاع شديد للقوى السياسية تبدأ الأحوال الإقتصادية بالتحسن، كقاعدة ثابتة دائمة. وعندما يصيح الإقتصاد مدار حياة شعبينا وغايته، فيخفق الفضائل الرفيعة، تنهار الدولة وتجبر معها الحياة الإقتصادية الى الهاوية... لم تنشأ قط دولة بوسائل إقتصادية سلمية"^(١٢)...

١١- المرجع السالف ص ٦٥٤.

١٢- المرجع السالف الص: ١٥٠-١٥٣.

لذلك "لا يمكن تطبيق سياسة إقتصادية إلا بوجود السيف ولا يوجد تصنيع بدون القوة..." كما جاء في خطبة له في مونخ ١٩٢٣. وأكثر من هذه الفلسفة الغامضة السخيفة وملاحظة عابرة في (كفاحي) عن "الغرف الإقتصادية" و"غرف المزارع الكبيرة" و"البرلمان الإقتصادي المركزي" التي "تبقى الإقتصاد القومي في حالة العمل"، لا يدلي هتلر برأي واحد عن الاسس الإقتصادية للرايخ الثالث. ومع ان اسم الحزب النازي نفسه يعلنه حزباً "إشتراكياً" فقد كان هتلر أكثر غموضاً في نوع "الإشتراكية" التي يدخرها لألمانيا الجديدة. وليس ذلك بالمستغرب نظراً الى تعريفه "الإشتراكية" في خطبة له يوم ٢٨ تموز ١٩٢٢ قال:

"على كل من جعل القضية القومية قضيته ان يصل بها الى الحد الذي يدرك انه لا يوجد مثل أعلى أرفع وأجل من سوؤد أمته. ومن منّا تفهم نشيدنا الوطني العظيم (ألمانيا فوق الجميع: Deutsch-landaeber Alles، لن يجد في عينه شيئاً أسمى من ألمانيا - شعباً وترية- ذلكم هو الإشتراكي الحق!)" (١٣)

رغم كل الارشادات الفنية والادبية التي بذلت لهتلر في تأليفه، ومع قيام ثلاثة من المساعدين على الاقل بتشذيب وتعديل فصوله، فقد ظل هتلر يقفز قفزاً تائهاً من موضوع الى آخر ولا ينكر ان (هيس) الذي قام بتدوين معظم فصول الكتاب في (لانديسبرگ) أولاً وفي منزل (فاخنفلد) قرب برختسجادن أخيراً، بذل أقصى ما في وسعه لسبك جمل المخطوطة إلا أنه لم يرض الزعيم. وكان أكثر من بذل مجهوداً في هذا الصدد القس (برنهارد شتمفله Bernhard Stempfle) العضو السابق في الاخوية الرهبانية الهيرونيمية Hieronymite والصحافي اللاسامي ذو الصيت السيء في بافاريا. هذا القس الغريب الذي سنسمع عنه في الصحائف التالية من تاريخنا، تولّى تصحيح نحو هتلر وصرفه السيء وقوم من لغته وأسلوبه على قدر ما تمكن، ورمج فقرات قليلة منه، أفلح في اقناع مؤلفه بأنها خسارة من الناحية السياسية. أما مشاوره الثالث فكان (جوزيف چيرني Josef Czerny) الجيكي الأصل الذي عمل في صحيفة النازي (فولكشر بيوباختر) وقد جذبه الى هتلر شعره المعادي لليهود. كان (چيرني) المصحح المشرف للجزء الأول بطبعته الثانية، فتولى حذف كلمات وعبارات نابية منه أو أجرى فيها التعديل، كذلك قام بتنقيح وتصحيح اخطاء الطباعة في المجلد الثاني بدقة وعناية.

مع هذا كله فلم ينج (كفاحي) من المتاهات والشوارد والنقلات الفجائية. لقد أصر هتلر على حشر آرائه كيفما اتفق في أي موضوع يخطر بالبال: فمن الحضارة الى الثقافة الى المسرح الى السينما الى الفن الى الكاريكاتور والأدب والتاريخ والجنس والزواج والفجور والسفلس. وفي موضوع السفلس تجده يخصص عشر صفحات تارزة ويعلن "أن أول واجبات الامة- ولا أحد الواجبات" أن يتم القضاء على هذا المرض الوبييل" وطلب ان تعبأ له كل وسائل الدعاية في الوطن ويقول "كل شيء يتوقف على حل هذه المعضلة"، ويجب ان تحل آفة الدعارة بتسهيل الزواج المبكر. وقدم قاعدة لتحسين نسل الرايخ الثالث بتشديده على ان الزواج لا يكون غاية بحد ذاته لكن يجب ان يكون وسيلة للهدف الأسمى وهو

١٣- "خطب أدولف هتلر Adolf Hitlers Reden ص٣٢ اقتباس بولوك: المرجع السالف (ص٦٨).

تكاثر النوع وزيادة النسل الآري ذلك هو معنى الزواج وغاياته^(١٤). وهكذا فهذا التنويه يحفظ النوع، ونقاوة العنصر تأتي الى وجهة النظر الرئيسية الثانية: نظرة هتلر الى الحياة (فالتنشونوك). يرى بعض المؤرخين ولاسيما في انكلترا انها شكل مشوه للداروينية على انها في الحقيقة كما سنرى - تمتد بجذورها العميقة الى التاريخ الألماني الموهل واتجاهاته الفكرية. رأى هتلر (كداروين) وعدد كبير من الفلاسفة الألمان والمؤرخين والملوك والقادة والساسة، ان الحياة هي كفاح أبدي والعالم هو مثل الغاية يعيش منها الأصلح ويحكمها الأقوى - "حياة فيها يعيش مخلوق على مخلوق وحيث يفرض موت الأضعف حياة الأقوى فرضاً لازماً".

وقد طرز (كفاحي) بمثل هذه العبارات: "في النهاية لا تتغلب إلا الرغبة في حفظ النوع... لقد شيدت عظمة النوع البشري في الكفاح الأبدي، وفي السلم الأبدي يتم فناؤه... الطبيعة... تضع المخلوقات الحية على هذه الكرة الأرضية وترقب تطاحن القوى الحرة. ثم تمنح حق السيادة والتفوق لابنها المفضل، الأقوى شجاعةً ومثابرة... الأقوى يجب ان يسود ولا يستوي مع الأضعف فيضحي بعظمته. والضعيف الخائر منذ ولادته هو وحده الذي يجد ذلك قسوةً" وحفظ التراث الثقافي عند هتلر "مرتبط بالقانون الثابت الجامد لقانون الضرورة وحق الغلبة للأحسن والأقوى في العالم. وأولئك الذين يريدون العيش عليهم أن يحاربوا ومن لا يريد القتال في هذه الدنيا دنيا الكفاح الأبدي، لا يستحق الحياة. حتى لو كان هذا الأمر قاسياً فهذا حكمه ولا تبديل له^(١٥)!

من هو "ابن الطبيعة المفضل، الأقوى شجاعةً ومثابرة" هذا الذي حبته العناية الإلهية "بحق" التفوق؟ هو الآري. ها هنا في (كفاحي) نأتي الى نواة الفكرة النازية في التفوق العنصري، الى مفهوم العنصر السيد الذي بني عليه الرايخ الثالث ونظام هتلر الجديد في أوروبا.

"كل الحضارة البشرية. كل ثمرات الفن والعلم والتكنولوجيا التي نراها أمامنا اليوم تكاد تكون المنتج الخلاق للجنس الآري. وهذه الحقيقة بالذات تقرّر الاستنتاج الذي له ما يبرره وهو أنه (اي الجنس الآري) هو وحده مؤسس البشرية العالمية. ولذلك فهو يمثل كل المفاهيم والمذلولات التي تعكسها لنا كلمة "رجل. فالآري هو بزميشيوس Prometheus البشرية الذي انبثقت من جبهته الوضاعة شرارة العبقرية الإلهية في كل الأزمان، وستبقى متقدمة متجددة بتلك النار، نار المعرفة التي تضيء ليل الأسرار الصامت وبهذا تدفع الرجل الى ارتقاء طريق السيادة على الكائنات الأخرى في هذه الأرض... انه هو الذي وضع الأسس وأقام جدران كل بناء عظيم في الحضارة البشرية^(١٦).

وكيف يحقق الآري كل هذا ويصبح متفوقاً؟ دونك جواب هتلر: "بأن يطأ الآخرين". ان هتلر ككثير من المفكرين الألمان من القرن التاسع عشر يظهر شيئاً من السادية ومن مناقضتها الماسوشية، والمتدارسون الأجانب للروحية الألمانية، يصعب عليهم فهم علة وجودهما.

١٤- كفاحي: الص ٢٤٧-٢٥٣.

١٥- المرجع السالف الص ١٣٤-١٣٥، ٢٨٥، ٢٨٩.

١٦- المرجع السالف ص ٢٩٠.

"وعلى هذا ولأجل إقامة حضارة أسمى كان وجود أنواع منحطة من البشر أمراً حيوياً كتمهيد سابق... ومن المؤكد أن أول حضارة بشرية اعتمدت على إستخدام المخلوقات البشرية المنحطة أكثر من إعتمادها على الحيوانات المدجنة. ولم تلق الحيوانات المصير نفسه إلا بعد استرقاق الأجناس البشرية السفلى. ففي مبدأ الأمر جرّ المحارب المغلوب المحراث - ويعدّه مباشرة جَاء الحصان. وبناء عليه فلم يكن بمحض الصدفة أن تقوم أولى الحضارات في بقاع أخضع الآريّ تلك المخلوقات لإرادته... أثناء اصطدامه مع الشعوب الأخط منه- وطالما يبقى محافظاً بقسوة على تفوقه الرفيع سيظلّ هو السيّد فضلاً عن بقائه حارساً للحضارة ومضيفاً اليها^(١٧)". ثم حدث شيء رأى فيه هتلر إنذاراً للألمان:

"ما ان يبدأ الشعب الخاضع المسود يرفع نفسه الى الأعلى ليقترب من مستوى سيّده الغالب (ومن سماته أنه يبتدي مثلاً باستعمال لغة السيّد) حتى تتكسر السدود بين السيّد وبين الخادم."

هناك شيء آخر أدهى وأخطر من مشاطرته لغة السيّد: "ينزل الآري عن نقاوة دمه، وبذلك يفقد مسكنه في الفردوس الذي صنعه لنفسه. ويغرق في الامتزاج العنصريّ ويفقد بالتدريج حضارته الخالقة".

يرى الزعيم النازي الشاب في هذا خطأً جوهرياً حاسماً.

"شائبة الدم واختلاطه، وما ينجم عنه من تدنٍ في المستوى العنصريّ هو السبب الوحيد لاضمحلال الحضارات القديمة لأن الرجال لا يلحق بهم الفناء كنتيجة لهزائم الحروب. لكن بضياح قوة المقاومة التي لا يضمن إستمراريتها إلاّ الدم النقي. وكل من ليس هو من عنصر طيب في هذا العالم، انما هو حثالة^(١٨)".

واليهود والسلافيّ حثالات. وبصيرورته دكتاتوراً وفتحاً، عمد الى منع زواج الألمان بأي شخصٍ من هذه الاجناس مع أن تلميذاً في الصف الرابع الابتدائي كان يستطيع أن يخبره بوجود كمية كبيرة من الدم السلافي في الألمان وبخاصّة أولئك الذين يسكنون الاقاليم الشرقية. وعلينا الاقرار أن هتلر كان عند وعده في تحقيق آرائه العنصريّة. ففي نظامه الجديد الذي بدأ يفرضه على السلافي في الشرق، وعلى الجيك والبولنديين والروس. كان على هؤلاء أن يصبحوا لأسيادهم الألمان قاطعي اخشاب وماتحي مياه- وان يبقوا كذلك إن قدر البقاء للنظام الجديد الشاذ. كانت خطوة سهلة لرجل كهتلر جاهل في التاريخ والانثروپولوجيا (علم الإنسان) أن يجعل الألمان آربي العصر- وبالتالي العنصر السيّد فالألمان ينظر هتلر "أسمى عنصر بشريّ على وجه البسيطة" وسيبقى كذلك إن ظلّ "منصرفاً ليس الى مجرد تربية أنواع من الكلاب والحيل والققط بل أيضاً الى المحافظة بكلّ عناية على نقاوة دمه^(١٩)".

إن انشغال فكر هتلر بالعنصريّة يؤدي به الى الدفاع عن فكرة "الدولة القوميّة"، ترى ما هي الدولة

١٧- المرجع السالف الص ٢٩٥-٢٩٦
١٨- المرجع السالف ص ٢٩٦ لهذه الفقرة والفقرتين اللتين سبقتهما.
١٩- المرجع السالف ص ٤٦٤.

القومية بالضبط؟ وكيف كان يريد أن تكون؟ اقولها بكلّ صراحة، أني لم أفهمهما فهماً واضحاً رغم تكرار قراءاتي في (كفاحي) وسماعي عشرات الخطب التي ألقاها (الزعيم) نفسه حول الموضوع مع اني سمعت أكثر من مرة أن الدكتاتور يصرح بأنها البؤرة التي يحوم حولها كل تفكيره. لا يمكن ترجمة لفظة Volk الألمانية ترجمة دقيقة. وتترجم عادة بـ(قوم) أو(شعب) لكن فيها باللغة الألمانية معنى أعمق، مختلفاً بعض الشيء يتضمن إشارة الى مجتمع بدائي قبلي يقوم على رابطة الدم والتراب. وقد عانى هتلر في (كفاحي) مشقة كبيرة في محاولته تعريف الدولة القومية Folkish State وأعلن مثلاً في الصحيفة (٣٧٩) أنه سيوضح المفهوم القومي، لكي ينكص في الحال عن أي توضيح ويمضي تائهاً في دروب من المواضيع ليعود أخيراً بعد عدة صفحات ويدخل في صلب القضية:

"وخلافاً للعالم البرجوازي، والعالم الماركسي-اليهودي] تجد الفلسفة القومية أهمية الجنس البشري في العناصر القومية الأولية. وتجد في الدولة لا أكثر من وسيلة لغاية وتتأول غايتها في حفظ الوجود العنصري للمرأة. لذلك فهي لا تؤمن قطّ بالمساواة بين الأقسام. لكنها تعترف-لوجود هذا الاختلاف- بقيمتها العليا أو الدنيا وتشعر بواجبها في تحقيق إنتصار الأصلح والأقوى. وتتطلب خضوع الأخط والأضعف بالنظر الى الإرادة الأبدية التي تحكم هذا الكون. ولهذا فهي من حيث المبدأ تخدم الفكرة الأساسية الارستقراطية للطبيعة وتؤمن بثبات هذا القانون وتحكمه بأخر فرد، وأنها لا ترى القيمة المتفاوتة للأقسام وحدها بل ترى أيضاً القيمة المتفاوتة للأفراد انفسهم. من الكتلة الشعبية تستخلص أهمية شخصية الفرد. وبناءً عليه... تكون ذات أثر تنظيمي. انها تعتقد بضرورة المثل الأعلى للبشرية الذي ترى فيه وحده مقدمة لوجود الجنس البشري إلا انها لا تستطيع أن تمنح حق الوجود حتى لفكرة أخلاقية إن مثلت خطراً على الحياة القومية لحملة الأخلاق العليا. ففي عالم مولد نغل، يشويه العنصر الزنجي ستضيع الى أبد الأبد كل مفاهيم الإنسانية في الجمال والجلال فضلاً كُّل الأفكار الخاصة بمستقبل جنسنا البشري الرفيع.

ولذلك تتصل الفلسفة القومية للحياة، باعمق إرادة الطبيعة وما دامت تحافظ على التوازن الحرّ فلا بدّ أن يؤدي الى تناسل متبادل مستمرّ أعلى درجة فأعلى حتى نصل أخيراً إلى اصلح البشرية معدناً. وبعد الحصول على هذه الأرض سيكون المجال حرّاً للقيام بالنشاط في املاك يقع جزء منها فوقه، وجزء منها خارجه.

ونشعر جميعاً بأن البشرية ستواجه في المستقبل البعيد مشاكل لا يستوي على حلّها إلا أرفع عنصر بشري هو "الجنس السيد" مدعماً بوسائل وامكانات الكرة الأرضية بأسرها(٢٠)."

ويعلن هتلر بعد هذه الفقرة بقليل: "لذلك كان أسمى ما تهتم به الدولة القومية من الغايات: هو حفظ العناصر الاصلية العرقية التي تهب الحضارة وتخلق الجمال. وتعزز مكانة جنس بشري رفيع(٢١)".

٢٠- المرجع السالف الص ٣٨٣-٣٨٤.

٢١- المرجع السالف ص ٣٩٤.

ويعود به هذا الى موضوع تحسين النسل ثانيةً: "الدولة القومية... يجب أن تضع العرق في مركز كل الحياة... يجب أن تهتم بحفظه نقياً... يجب ألا تغفل عن نجاب الأطفال من اناس أصحاء فقط. وأن هناك معرة واحدة: أن ينجب المرء نسلًا رغم سقمه وعيوبه الخلقية. وهناك أرفع شرف وهو ان لا يفعل ذلك ويعكس ذلك يجب ان يعتبر الضنّ بالاطفال على الأمة عملاً يستوجب التعنيف واللوم. وهنا يجب أن تعمل الدولة [القومية] عمل الوصي على المستقبل الألفي الأسعد. حيث لاتعتبر انانية الفرد ولا رغباته الشخصية شيئاً، ويجب أن يتم اخضاعها... وعلى الدولة القومية والحالة هذه أن تبدأ برفع الزواج عن مستوى التدنيس المستمر للعرق، وان تمنحه مستوى قدسيّة عمل يتطلّب منه إنجاب نسخ من صورة الله، لا غرائب من المخلوقات تقف بين الإنسان والقرود^(٢٢).

إن مفاهيم هتلر العجيبة عن الدولة القوميّة تؤدي الى عدد كبير من التأويلات اللفظيّة التي لو أتبعنا (كما يقول) لجعلت الألمان سادة المعمورة - لقد أصبحت مسألة السيادة الألمانية شغله الشاغل. وفي نقطة أخرى رأى أن فشل العرق الألماني في الحفاظ على "نقاء النطفة"، "جعلنا نحرم من السيطرة على العالم. لو ملك الشعب الألماني وحدة القطيع تلك التي تمتع بها غيرهم من الامم لكان الرايخ الألماني اليوم سيد الكرة الارضية^(٢٣).

بلاشك. وما دامت الدولة القومية يجب أن تبنى على العرق "فمن الضروري أن يحتضن الرايخ الألماني كلّ الألمان" وتلك هي حجر الزاوية في منطقته. وهي الفكرة التي لم ينسها ولم يتلها في العمل لها عندما جاء الى الحكم.

وما دامت الدولة القومية يجب أن تبنى على "فكرة عالم الطبيعة الارستوقراطية" فهذا يقتضي استبعاد الديمقراطية من الموضوع. وإستبدالها (بمبدأ الزعامة). إن مبدأ زعامة الجيش البروسي يجب ان يتبنّاها الثالث "سلطة كلّ قائد على المادون، والمسؤولية للأعلى^(٢٤).

"يجب ألا يكون ثم قرارات بالأغلبية... وانما اشخاص مسؤولون فحسب... مما لاشك فيه أن سيكون لكلّ شخص مشاورون الى جانبه، لكن القرار يتخذه شخص واحد^(٢٥)...

هو وحده فقط يملك السلطة والحق في أن يأمر وقد لا يكون بالامكان الاستغناء عن البرلمان. لكن مشاوريه سيقدمون آنذاك مشوراتهم فعلاً... لن يحصل أي تصويت في أي مجلس. إنها مؤسسات عاملة وليست مكائن للتصويت. هذا المبدأ مبدأ المسؤولية المطلقة المرتبطة دون قيد أو شرط بالسلطة المطلقة - ستخرج وتربي تدريجاً صفوة من الزعماء لا يوجد قط مثلهم في عصرنا هذا عصر البرلمانية غيرالمسؤولة^(٢٦).

تلك هي آراء أدولف هتلر. صاغها بكلّ غلاظتها المفرعة وهو جالس في سجن لاندسبرگ يرسل

٢٢- المرجع السالف ص ٣٩٤.

٢٣- المرجع السالف الص ٤٠٢-٤٠٤.

٢٤- المرجع السالف ص ٣٩٦.

٢٥- الخطّ تحت العبارة هو لهتلر بالأصل.

٢٦- المرجع السالف الص ٤٤٩-٤٥٠.

أنظاره الى البيستان المزهرة الذي يعلو ضفة نهر ليخ^(٢٧). أو في زمن تال ما بين عامي ١٩٢٥- ١٩٢٦، متكئاً على قدمه شرفة حانة مريحة في برختسگادن متطلعاً الى قمم الألب الشم في وطنه النمسا. وهو يملئ سيلاً من الكلمات على تابعه المخلص (رودولف هيس) ويحلم بالرايخ الثالث الذي سيبنيه على الأسس الضحلة التي رأيناها وسيحكمه بقبضة من حديد. أما انه سيبنيه ويحكمه يوماً ما فهذا ما لم يكن يداخله فيه أي شك. ذلك لأن نفسه كانت في إسار شعور محرق برسالة غريبة نجدها في كثير من العباقرة الذين لا يبدو وكأنهم نبتوا من بقعة ولم يتكونوا من شيء، عبر العصور والاحقاب. كان سيوحّد شعباً مختاراً غير موحد سياسياً. كان سينقي عرقهم، ويجعلهم اقوياء، وسادة الأرض، أهي دارونيية مشوهة؟ أم خيالات سادية؟ أم انانية مستهترة؟ أم مس من جنون العظمة؟ megalomania إنها كلها مجتمعة بل هي أكثر من هذا، لأن لعقل هتلر وهواه وكل الضلالات والخيال التي شغلت دماغه المحموم- جذوراً امتدت الى عمق سحيق في تجارب الشعب الألماني وفكره. والواقع أن النازية والرايخ الثالث إنما هما الإستمرار المنطقي للتاريخ الألماني.

- ٢ -

الأصول التاريخية للرايخ الثالث

كان من عاداتي القدوم في أيام إستعراضات الحزب النازي السنوية الصاخبة- الى نورمبرگ في مبدأ أيلول، وهناك اجد كثيراً من الباعة الجوالين يبيعون من الناس صورة (پوست كارت) تظهر فيها وجوه (فردريك الأكبر ويسمارك وهندنبرگ وهتلر). وقد كتب في اسفلها هذه العبارة "ما فتحه الملك، صاغه الأمير، ودافع عنه الفيلدمارشال. وأنقذه ووحدّه الجندي". وهكذا صور هتلر الجندي لا كمنقذ وموحد لألمانيا فقط، بل كخليفة لهؤلاء الاشخاص المشهورين الذين جعلوا البلاد تصل مراقي العظمة. إن اقحام مسألة إستمرار التاريخ الألماني الذي ختم بحكم هتلر، لم يفقد تأثيره عند الجماهير وتعبير "الرايخ الثالث" نفسه كان يساعد هذا المفهوم ويقويه. كان الرايخ الأول هو الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي ازدهرت في القرون الوسطى، والرايخ الثاني هو ألمانيا التي وحدها بسمارك سنة ١٨٧١ بعد أن هزمت بروسيا فرنسا. وكلاهما أضافا مجدداً الى الإسم الألماني. اما جمهورية (فايمر) على رأي الدعاية النازية فقد مرغت ذلك الاسم الجميل في الوحل فانتشله الرايخ الثالث كما وعد به هتلر تماماً. ولهذا صورت ألمانيا هتلر بأنها التطور المنطقي لكل ما مضى قبلها. أو على الاقل لكل ما كان مجيداً.

٢٧- قال هتلر بعد مرور زمن طويل: "لولا سجنني لما كتبت كفاحي. فالفترة التي قضيتها سجيناً منحنتني فرصة لزيادة التأمل في مختلف الخواطر التي كانت حتى ذلك الوقت مجرد مشاعر باطنية... ومنذ ذلك الحين ايضاً اعتقدت بأننا لن نستطيع الوصول الى الحكم بالقوة- وهو شيء لم يفهمه معظم أعواني فقد توفر للدولة الوقت الكافي لتثبيت نفسها وكان بيدها السلاح". (احاديث هتلر السرية ص ٢٣٥). هذه الملاحظة أدلى بها أمام عدد من أعوانه في قصر قيادة الجبهة الروسية في ليلة ٤/٣ شباط ١٩٤٢.

لكن المتشرد (الغيبيني) السابق على خواء رأسه وجهله قد وقف على ما يكفي من وقائع التاريخ ليدرك به أن ألمانيا منيت باخفاقات في الماضي. اخفاقات يجب ان تقارن بنجاحات في فرنسا وانكلترا ولم ينسَ ان ألمانيا بقيت مجتمعاً مضطرباً مرقعاً يتكون من حوالي ثلاثمائة دويلة مستقلة في نهاية عهد القرون الوسطى تلك القرون التي رأت فرنسا وانكلترا تبرزان في التاريخ دولتين تامّتي الوحدة. هذا النقص في التطور القومي قرر بصورة رئيسة سبيل التاريخ الألماني من نهاية القرون الوسطى الى منتصف الطريق في القرن التاسع عشر وجعلها تختلف تمام اختلاف عن أي شعب كبير من شعوب غربي أوروبا.

ويضاف الى نقص الوحدة السياسية ووحدة التاج كارثة النزاع الديني الذي عقب حركة الاصلاح في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ليس في هذا الكتاب مجال لبحث تفصيلي دقيق عن التأثير العظيم الذي خلفه (مارتن لوثر) الفلاح السكسوني الذي أصبح راهباً اوغسطينياً وأضرم نار حركة الاصلاح الديني الألماني واستحدث الطابع الذي دمغ الألمان وتاريخهم. ولنا ان نذكر بصورة عابرة، ان هذا العبقري الشامخ خلف علامته في حياة الألمان. هذا الخصم اللدود الوحشي للسامية ومبغض كنيسة روما الذي اجتمع في خلقه العاتي، الكثير الكثير من اطيب الفضائل وأحسن الرذائل الألمانية. ففيه تجد الفظاظ والتعصب وعدم التسامح والهييج والعنف الى جانب الصدق والسذاجة وحب النقد الذاتي والتعلق الشديد بالعلم والموسيقى والشعر والتمسك بالعدل والاستقامة أمام عين الله. كل ذلك خلف آثاره العميقة الحسنة منها والسيئة- مما لم يخلقه شخص واحد آخر سابق له أو لاحق. لقد خلق (لوثر) بمواعظه الدينية وترجمته الرائعة للكتاب المقدس، اللغة الألمانية الحديثة. ولم يكتف أن يخلق في نفوس الألمان وجهة نظر بروتستانتية جديدة في الدين المسيحي بل خلق أيضاً غيرة ألمانية قومية، وعلمهم- على الأقل في حدود الدين- تفوق الضمير الفردي الحر. لكن شاء سوء حظهم ان يتخذ لوثر جانب الأمراء في ثورة الفلاحين تلك الثورة التي كانت له اليد الطولى في بعثها وتأجيجها روحياً. وسبب تعلقه بالأوتوقراطية السياسية- تثبيت دعائم سلطانها المطلق الأقليمي اللأبالي الذي قذف بأغلبية الشعب الألماني الساحقة الى احضان الجوع والفاقة والخمول الفظيع والذلة. والانكى من هذا كله انه ساعد على ادامة وزيادة حدة الانقسام لا بين الطبقات وحدها بل بين الأسر الحاكمة ومختلف الندوات السياسية للشعب الألماني فأخرت من احتمال توحيد ألمانيا عدة قرون.

وخاتمة الكوارث انأخت على ألمانيا بسبب حروب السنين الثلاثين وصلح وستفاليا Westphalia الذي ختم بها العام ١٦٤٨. لقد كانت ضربة مدمرة لم تشف منها البلاد شفاءً تاماً أبداً. تلك هي آخر الحروب الدينية الكبرى التي خاضتها أوروبا لكنها تحولت بتفسخها وقبل ان تدنو نهايتها، من صدام بروتستانتية-كاثوليكية الى نزاعات سياسية حادة معقدة بين آل هابسبرگ الكاثوليك النمساويين من جهة، وبين الكاثوليك الفرنسيين البوربون والاسوجيين البروتستانت الملكيين من جهة أخرى. وفي القتال الوحشي بينهما، أضحت ألمانيا ساحة المعركة بلقياً بياباً فقد دمرت المدن ولحق بالريف الخراب الماحق وايبس السكان بحد السيف. وقدر أن هذه الحرب الهمجية اهلكت ثلثي مجموع الشعب الألماني.

وكان (صلح وستفاليا) كارثة أخرى لا يقل أثرها عن كارثة الحرب بالنسبة الى مستقبل ألمانيا فالأمراء الألمان الذين انحازوا الى جانب السويد وفرنسا، ثبتوا حكاماً بسلطان مطلق على اماراتهم الصغيرة حتى ناهز عددها الثلاثمائة وخمسين اماراً وبقي الإمبراطور مجرد حاكم شكلي بمقدار ما يتعلق بارض ألمانيا. وخنقت روح الاصلاح والعلم التي كانت قد عمت ألمانيا وطغت في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر. في تلك الفترة كانت المدن الكبيرة الحرة تتمتع باستقلال حقيقي تام. ولم يعد للإقطاع وجود فيها وازدهرت التجارة والفنون. حتى في الريف، كان الفلاحون الألمان قد ضمنوا لأنفسهم حريات أوسع كثيراً مما لأمثالهم في انكلترا وفرنسا ويمكن القول بلا مبالاة أن ألمانيا في مطلع القرن السادس عشر كانت ينبوعاً من ينابيع الحضارة الأوروبية.

وبعد إبرام صلح (وستفاليا) باتت ألمانيا غارقة في حمأة بربرية قياصرة المسقوف (قياصرة موسكو). فأعيد نظام القنانة حتى انه طبق في بقاع لم يكن معروفاً فيها من قبل. وفقدت المدن استقلالها الذاتي. وبدأ الأمراء في اعتصار واستغلال الفلاحين والشغيلة، بل حتى الطبقة الوسطى البرجاسية Burghers فهؤلاء وضعوا في مرتبة العبودية. وبطل التنبع العلمي والفني. وكان الحكام الطمّاعون لا يحسون بأي شعور ألماني وطني أو قومي ولا يترددون في قمع أي مظهر لهما يذّر قرنه بين رعاياهم. وتوقفت المدنية في ألمانيا توقفاً تاماً وكان الرايخ كما وصفه أحد المؤرخين "مستقراً استقراراً غير طبيعي وعلى مستوى العصر الوسيط من الاضطراب والضعف"^(٢٨).

لم تنهض ألمانيا من كبوتها قط. وأصبح الرضى بالأوتوقراطية والخضوع الأعمى للطغاة الصغار الذين حكموا بمثابة أمراء فكرة متأصلة في الذهنية الألمانية ولم تفرخ في ألمانيا فكرة الديمقراطية والحكم بواسطة البرلمان التي تطورت تطوراً سريعاً في انكلترا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وفجرت تفجيراً في فرنسا ١٧٨٩. هذا التأخر السياسي في شعب ألمانيا المنقسم الى عدد كبير من الامارات الصغيرة والمنعزل تمام انعزال عن تيارات الفكر والتقدم الأوروبي الصاعد جعل البلاد الألمانية مفصولة عن سائر بلاد الغرب وبعيدة عنها بمسافة كبيرة. ولم يوجد نمو طبيعي للشعب. وعلى المرء أن يحفظ ذلك في فكره إن شاء أن يفهم الطريق المهلك الذي اتخذته هذه الأمة فيما بعد ذلك، والانحراف العقلي الذي استقرت عليه وبالأخير صُهر الشعب الألماني وسبك بمحض القوة. وحافظ على وحدته بالعدوان المحض.

تقع بروسيا فيما وراء ضفاف نهر الألبه الشرقية. وفيم بدأت شمس القرن التاسع عشر بالأفول، بعد ان شهد هذا القرن الفشل المؤسف الذي حاق بمحاولة أولئك الأحرار الضعفاء في فرانكفورت ١٨٤٨-١٨٤٩ لخلق ألمانيا ذات مسحة ديمقراطية. تسلمت بروسيا مصائر الشعب الألماني. ظلت هذه الدولة الجرمانية قروناً بعيدة عن المجرى الرئيس للتطور الألماني التاريخي والثقافي. وكادت تبدو وكأنها فلتنة من فلتات التاريخ. لقد بدأت بروسيا كدولة حدود قصية تعرف باسم (براندنبرگ) في الأراضي الرملية القاحلة الممتدة شرق نهر ألبه التي انتزعت في القرن الحادي عشر بالتدريج من ايدي

٢٨- "مسرى التاريخ الألماني" ص ٢٤ بقلم اي. جي. بي. تايلر.

السلاتف وقام آل هوهنزولرن بيت الإمارة الحاكم في دولة براندنبرگ وهم أكثر قليلاً من مغامرين عسكريين بدفع السلاتف (وأغلبهم بولنديون) الى الشرق نحو البلطيق. ومن لجأ منهم الى المقاومة إما ذبحوا بحد السيف أو جعلوا اقناناً لايملكون أرضاً. لقد منع القانون الإمبراطوري للإمبراطورية الألمانية، الأمراء من اتخاذ ألقاب الملوكية. ولكن منح لقب إمبراطور للمنتخب فردريك الثالث. الذي تم تتويجه ملكاً على بروسيا في كوينكسبرگ Koenigsberg ١٧٠١.

ولكن بروسيا في هذه المرة رفعت نفسها الى فوق بركابها نفسها لتكون إحدى القوى العسكرية المعدودة في أوروبا دون ان يكون لديها امكانات القوى الأخرى. فأرضها جرداء قاحلة خالية من المعادن وسكانها قلة. وليس فيها مدن كبيرة ولا صناعة وليست متقدمة حضارياً. حتى نبلاؤها فقد كانوا فقراء، والفلاحون الأجراء يعيشون عيشة السائمة، إلا أن آل هوهنزولرن تمكنوا بعمل خارق اراديّ ومقدرة عبقرية في التنظيم من خلق دولة عسكرية سبارطية فاز جيشها بالانتصار تلو الانتصار. واستطاعت دبلوماسيتها الميكافيلية بطريق التحالف الوقتي مع أي بلاد تبدو أقوى من غيرها، من ضمّ مستمر لأراضي جديدة الى حدودها.

وهكذا ولدت دولة غير طبيعية بالمرة. لم تنشأ عن قوة دفع شعبية أو فكرة خلا فكرة التوسع والفتح. تجمعها كتلة واحدة متماسكة يد الحاكم المطلقة والبوروقراطية الضيقة التفكير التي تلبّي أمره، وجيش يخضع لنظام ضبط بالغ بالقسوة، يُنفق عليه من موارد الدولة ثلثها بل خمسة أسداسها أحياناً. أصبح هذا الجيش بقيادة الملك دولة بذاته. وقال ميرابو* Mirabeau "ليست بروسيا دولة ذات جيش، لكنها جيش ذو دولة" وقد أصبحت الدولة فهي الكل في الكل تدار بكفاية المعمل وتجردّه عن كل عاطفة، ولا يزيد مركز الشعب فيها عن أسنان في آلة من الآلات، وقد لُفن الأفراد من قبل ملوكهم وعرفاء تديريهم بل ومن فلاسفتهم أيضاً بأن ادوارهم في الحياة قاصرة على الطاعة والعمل والتضحية والواجب حتى (كانت** Kant) نفسه فقد بشر بأن الواجب يتطلب قمع الشعور الإنساني. ومجد الشاعر البروسي "فيلبالد الكسيس Willibald Alexis" عبودية الشعب لآل هوهنزولرن. اما (لسنك*** Lessing) الذي كان يمجّ ذلك فقد وصف بروسيا بأنها أكثر البلاد عبودية في أوروبا.

واليونكرز Juneirs الذين قدر لهم دور رئيس حيوي في ألمانيا الحديثة هو أيضاً منتج بروسي فريد من نوعه فهم كما يعتبرون أنفسهم معدن السيادة. وهم الذين اغتصبوا بالقوة أراضي السلاتف واستغلوها زراعياً بمثابة مزارع ضخمة عمل فيها السلاتف الذين أصبحوا اقنان ارض أو أجراء يختلفون تمام الاختلاف عن أمثالهم في الغرب. هناك اختلاف جوهري بين النظام الزراعي في بروسيا

* هونوريه غابرييل دي ميرابو (١٧٤٩-١٧٩١) قائد ثوري فرنسي وخطيب قوى المعارضة، عمل سراً على إقامة ملكية دستورية إلا أنه لم يكن موضع ثقة لا من الثوريين ولا من الملكيين. أنتخب رئيساً للجمعية الوطنية إلا أنه توفي بعد أشهر قلائل.

** أمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) واحد من مشاهير الفلاسفة الألمان وأعظم الفلاسفة في كل مكان. أشتهر بكتابه نقد العقل المجرد ونقد العقل التجريبي. وغيرها.

*** كوتهودل أفرام لسنك (١٧٢٩-١٧٨١) مرسيّ وناقد وفيلسوف ألماني مؤسس الأدب القومي الحديث.

وبين صنوه في ألمانيا الغربية وأوروبا الغربية. ففي الأخيرتين يقوم النبلاء الذين يملكون معظم الأرض بايجار الأرض، واستحصال ضرائب اقطاعية من الفلاحين الذين كثيراً ما كانوا يرزحون تحت حالة ما من العبودية غير أنهم يتمتعون ببعض الحقوق والامتيازات وبامكانهم أن يحصلوا على أراضٍ زراعية لأنفسهم بالتدريج وينالوا الحرية المدنية. ويؤلف الفلاحون في الغرب جزءاً راسخ القاعدة من المجتمع. وعلى كل عيوب سادة الأرض فقد طوروا- في حياة الكسل والحمول التي كانوا يعيشونها- أساليب الزراعة التي أدت مما أدت، الى غنم من الحياة يتسم بطابع الحضارة ويمكن توضيح معالمه في رقي الأخلاق والعادات والأفكار والفنون.

لم يكن البروسي (اليونكر) أخوا كسل وخمول فقد عمل دؤوباً في إدارة مزرعته المترامية الأطراف مثلما يفعل اليوم مدير إدارة المصنع تقريباً فكان يعامل الفلاحين الأجراء الذين لا يملكون أرضاً معاملة عبيد إرقاء وكان السيد المطلق في املاكه الواسعة ولم يوجد ثم مدن كبيرة أو طبقة وسطى ثرية -كما يوجد في الغرب- تناصبه العداة وتضايقه بنفوذها الحضري. فهو خلافاً للسيد العظيم grand seigneur المهذب في الغرب. رجل غليظ متعطر، متعجرف، جاهل، غير مهذب، اعتدائي، قاسٍ مغرور ضيق الاقوى مغرم بجني الربح التافه كما لحظ ذلك بعض المؤرخين الألمان في الحياة الخاصة لـ(أوتو فون بسمارك) أنجح فرد من طبقة (اليونكرز) ولهذه العبقرية السياسية اصول مذهب "الدم والحديد" يعود الفضل في انهاء عهد الانقسام في ألمانيا الذي دام حوالي ألف سنة وضمها بالقوة الى بروسيا العظمى فيما بين ١٨٦٦-١٨٧١ أو ما قد يدعى "بألمانيا البروسية". إن ألمانيا التي عرفها جيلنا وهي مخلوق بسمارك الحريد الفريد، ظلت طوال مائة عام معضلة أوروبا والعالم وطفلها الجناح المعقد. انها وطن يسكنه شعب موهوب عظيم القابليات شديد القوى، نجح كل من ذلك الرجل العظيم ومن بعده القيصر فلهلم الثاني وأخيراً هتلر، بمساندة الطبقة العسكرية ودعم الكثير من أغرب المفكرين- في تلقيه الشهوة الى التسلط والتحكم، والعسكرية الجموحة، واحتقار الديمقراطية وخنق حرية الفرد وشوق الى السلطة والحكم المطلق. تحت تأثير هذا السحر ارتفع هذا الشعب الى أعلى عليين ثم هوى ثم ارتفع. حتى كانت سقطته العظمى بنهاية هتلر في ١٩٤٥ حيث خيل للناس أنه دمر- وخير لنا ألا نستعجل الكلام في هذا بثقة وجزم.

صرح بسمارك عند توليه رئاسة الوزارة البروسية في ١٨٦٢: "إن قضايا اليوم الكبرى لن تحلّ بالقرارات وأغلبية الأصوات - كانت تلك غلطة رجال العامين ١٨٤٨ و١٨٤٩- وانما تحلّ بالدم والحديد" وهذا بالضبط الأسلوب الذي اتبعه في تسويتها، على أنه يجب الاقرار باضافته اليها لمسات من الحنكة الدبلوماسية والدهاء السياسيّ تتميز في كثير من الأحيان بالخديعة. كان هدف بسمارك تحطيم الليبرالية، والاستناد الى القوى المحافظة- أعني اليونكرز والجيش والتاج -وجعل بروسيا- بمواجهة النمسا القوة المسيطرة ليس على الألمان وحدهم، بل على أوروبا ايضاً إن امكن. فقد قال لنواب البرلمان البروسي "لا تنظر ألمانيا الى الليبرالية البروسية بل الى قوتها". شرع بسمارك أولاً في بناء الجيش البروسي، وعندما رفض البرلمان رصد إعتمادات إضافية، صرفها

هو من تلقاء نفسه وأخيراً حلّ المجلس. وضرب بجيشه المتقوي ضربات حاسمة في ثلاث حروب متتالية. أولاها ضدّ الدانرك في ١٨٦٤ فاقتطع منها دوقيتني شلزفيك وهولشتاين Holstein وضمهما الى ألمانيا وثانيتها ضدّ النمسا في ١٨٦٦- وكانت أعظم من الأولى نتائج بما لايقاس، فبعد ان ظلت النمسا قروناً متعاقبة الأولى بين الدول الألمانية. طردت أخيراً من أسرة الدول الألمانية ومنعت من التدخل في شؤونها كذلك لم يسمح لها بالدخول في الإتحاد الألماني الشمالي الذي شرع بسمارك في انشائه.

مرةً، كتب العالم السياسي الألماني الشهير رويكه Roepke "لم يعد لألمانيا وجودٌ بعد العام ١٨٦٦". فقد ضمت بروسيا كلّ الدول الألمانية الواقعة شمال نهر الماين Main التي حاربتها بإستثناء سكسونيا. وهي: هانوفر، وهسّ، وناساو Nassau وفرانكفورت، ودوقية (إليه) كلّها اجبرت على الدخول في الإتحاد الألماني الشمالي. وسيطرت عليه بروسيا التي أصبحت تمتد الآن من (الراين) الى كوينكسبرغ. وبعد خمس سنوات، على اثر هزيمة نابليون الثالث الفرنسي. ضمتّ الدول الألمانية الجنوبية الى ألمانيا البروسية. وفي مقدمتها مملكة بافاريا الكبيرة^(٢٩).

وكانت خاتمة إنجازات بسمارك خلق الرايخ الثاني الذي رأى النور في الثامن عشر من كانون الثاني ١٨٧١ حين توجّ الملك فلهلم الأول البروسي إمبراطوراً لألمانيا في قاعة المرايا في فرساي. وهكذا تم توحيد ألمانيا بفضل القوات المسلحة البروسية فاذا بها الآن أعظم قوة في أوروبا القارة ومنافسها الوحيد هو انكلترا.

إلا أنه كان يوجد عيبٌ لايرجى صلاحه. فالإمبراطورية الألمانية كما قال ترايتشكه Treitschke إن هي إلا انفتاح لبروسيا. وأوضح ذلك بقوله "بروسيا هي العامل المسيطر... فإرادة الإمبراطورية هي ليست إلا إرادة الدولة البروسية"، وهو قول صائب. وكان تأثير هذا الواقع مدمراً بالنسبة الى الألمان انفسهم فمنذ ١٨٧١ حتى ١٩٣٣ وبالاحرى حتى نهاية هتلر ١٩٤٥ كان مسرى التاريخ الألماني، نتيجة لما سلف أي مواصلة السير على خط مستقيم وبمنطق تام بإستثناء فترة جمهورية فايمر.

كانت الإمبراطورية الألمانية في الحقيقة أوتوقراطية عسكرية يحكمها ملك بروسيا الذي هو إمبراطور أيضاً. رغم الواجهة الديمقراطية التي وضعت باستحداث مجلس الرايخشتاغ ويتم إنتخاب أعضائه بالاقتراع العام للذكور فقط. وسلطات الرايخشتاغ قليلة. وهو لايزيد كثيراً عن جمعية للمداولات حيث يطلق ممثلو الشعب بخارهم الحبيس ويساومون لقاء منافع تافهة للطبقات التي يمثلونها. والعرش وحده صاحب السلطان والجبروت بموجب الحق الإلهي ولم يتحرّج فلهلم الثاني من التصريح وفي مثل هذا التاريخ القريب سنة ١٩١٠! بأن التاج الملكي اعطي له "بنعمة من الله وحده وليس بفضل البرلمان أو الجمعيات الشعبية أو القرارات العامة..." واضاف الى ذلك قوله "... ولما كنت اعتبر نفسي من إرادة الله... فلي أن اختار سبيلي".

والبرلمان لا يقوم عائقاً في سبيله. فهو يعين المستشار الذي يكون مسؤولاً أمامه لا أمام الرايخشتاغ

٢٩- "حلّ المسألة الألمانية" ص ١٥٣ بقلم "فلهلم رويكه".

وليس بإمكان الجمعية طرد المستشار أو إبقاؤه في وظيفته فهذا من صلاحية الملك ولذلك فإن فكرة الديمقراطية ومبدأ السيادة الشعبية وسلطة البرلمان العليا لم تجد لها موطناً في ألمانيا حتى بعد فاتحة القرن العشرين. خلافاً للتطورات التي حصلت في دول الغرب الأخرى. الحق يقال إن الإشتراكيين الديمقراطيين بعد سنوات من الاضطهاد على يد بسمارك والإمبراطور أصبحوا بمجيء العام ١٩١٢ أكبر حزب سياسي في الرايخشتاغ. وطالبوا بأصوات عالية إحلال الديمقراطية البرلمانية. إلا أنهم كانوا عديمي التأثير. ومع انهم أوسع حزب فقد ظلوا أقلية. والطبقات الوسطى التي أنعشها التطور المتأخر الهائل للثورة الصناعية بهرنا نجاح سياسة بسمارك في القوة والحرب نزلت لقاء الكسب المادي عن كل طموح للحرية السياسية قد تصل إليها^(٣٠) ورضيت بأوتوقراطية هونزلرن واذعنت بكل سرور ليوروقراطية اليونكرز واعتنقت العسكرية البروسية بحرارة. لقد سعد نجم ألمانيا والشعب كل الشعب تقريباً متحمس للقيام بكل ما يطلبه منهم سادتهم، لابقاء البلاد في فلكها الرفيع دائرةً.

وظل هتلر النمساوي واحداً من هذا الشعب حتى النهاية. فعنده ان رايش بسمارك (الرايخ الثاني) رغم أخطائه "وقوى تفسخه الهائلة" انما هو عمل مجيد رائع فيه أصبح الألمان سادة انفسهم.

"لم تكن ألمانيا خلافاً لغيرها من البلاد - مثلاً عجباً لإمبراطورية نهضت على أساس من سياسة القوة المحضه؟ ان بروسيا وهي نطفة الإمبراطورية لم تتكون إلا بفضل أعمال البطولة الباهرة، وليس بفضل العمليات المالية والصفقات التجارية. والرايخ بدوره، انما هو المكافأة المجيدة للزعامة السياسية العسكرية والبسالة التي تتحدى الموت بجنودها لا غير..."

"هذا الطفل الرضيع، الرايخ [الثاني] بدا مطلياً بسحر حادث جليل نهض بالأمة قاطبةً بعد سلسلة من إنتصارات لاتباري ولد رايخ للأبناء والأحفاد - مكافأة للبطولة الخالدة... هذا الرايخ الذي لا دين بوجوده الى الأعياب الاحزاب البرلمانية، تراه يشمخ بأنفه على معايير الدول الأخرى، بمحض كيفية نشوئه الطريقة الرائعة. هذه المهمة لم تنجزها فأقاة الخطب البرلمانية بل ضجيج المعركة وقعقة السلاح وجيوش الميدان تلك التي طوقت (باريس). ذلكم إعلان لارادتنا يصرخ ان الألمان: أمراء وعامة قد عزموا في المستقبل على إقامة رايخ جديد ورفع التاج الإمبراطوري الى أعلى عليين مرة أخرى... إن دولة بسمارك لم يقمها دعاة الهزيمة أو المتخاذلون، بل اقامتها ألوية الجيش المظفرة في الجبهة... هذا الميلاذ الفريد في بابيه، والعماد بالنار يحيطان الرايخ بهالة من المجد التاريخي لا تفخر بمثلها

٣٠- ويشبه هذا نوعاً ما الصفقة التي عقدتها الطبقة العاملة الألمانية. فلأجل مكافحة العقيدة الإشتراكية قام بسمارك ما بين ١٨٨٣-١٨٨٩ بوضع برنامج للضمان الإجتماعي لا يضاويه أي برنامج في أي بلاد أخرى، يتضمن التأمين الاجباري عن عجز العامل بسبب التقدم في السن والمرض وعوارض العمل وفقدان القابلية ومع ان الدولة كانت تدير المشروع وتشرف عليه إلا ان ماليته مصدرها ارباب العمل والعمال انفسهم. ولا يمكن القول ان هذا البرنامج شل نشاط الإشتراكيين الديمقراطيين ونقابات العمال، على ان أثره على الطبقة العاملة كان شديداً من ناحية أخرى. اذ جعلهم يضعون الضمان الإجتماعي فوق التحرر السياسي، وجعلتهم ينظرون الى الدولة مهتماً غرقت في اليمينية نظرتهم الى حام ومحسن اليهم. وقد إستفاد هتلر كما سنرى من تلك الحالة الفكرية إستفادة تامة. فكان في هذا تلميذاً لبسمارك كما في غيره وتعلم منه الكثير "درست تشريعات بسمارك الإجتماعية وتأملت أغراضها ومدى ما حققت من نجاح في ميدان التطبيق" (كفاحي ص ١٥٥).

إلا أقدم الدول وتلك أيضاً قلة نادرة.

اي ارتفاع بدأ الآن؟

الحرية من الخارج تؤمن الحيز اليومي للداخل. أصبح الوطن غنياً في العدد وفي خيرات الأرض. وشرف الدولة ومعه شرف الشعب، حماه وصانه جيش كان بإمكانه الإشارة بوضوح الى موطن الاختلاف مع الإتحاد الألماني الغابر^(٣١) تلك هي ألمانيا التي عزم هتلر على إصلاح أمرها. لقد فصلّ بأسهاب عظيم في (كفاحي) الأسباب التي يعتقد انها أدت الى سقوطها وهي: تسامحها مع اليهود والماركسيين، المادية الكثرة والأنايية التي تحلّت بها الطبقة الوسطى، النفوذ المقيت الذي مارسه "المتبصبصون لاعتقوا البصاق" حول عرش هونزلرن، "سياسة التحالف الألمانية، جلاية الكوارث" تلك التي ربطت ألمانيا بنظام هايسبرگ المهتريء، وبالإيطاليين الحقرء، بدلاً من ارتباطها بانكلترا، الافتقار الى سياسة إجتماعية عنصرية أساسية؛ تلك هي الأخطار التي وعد ان تتلافها القومية الإشتراكية وتتحاشاها.

-٣-

الأصول الفكرية للرايخ الثالث

والسؤال -بعد تركنا التاريخ جانباً- من أين جاء هتلر بأرائه؟ كان خصومه خارج ألمانيا وداخلها: إمّا منشغلين بأمر أخرى، أو انهم بدرجة كبيرة من الغباء حتى انهم لم يهتموا بها إهتماماً كبيراً الى ان فرط الأمر من ايديهم... لقد هضم هتلر ككثير من الألمان خليطاً غريباً من أفكار شاذة مخبولة نبطت في رؤوس مفكري القرن التاسع عشر الألمان وتلقاها على الأغلب مشوهة، محورة عن طريق احد ادعياء الفلسفة، كالمثلاث (الفريد روزنبرگ) أو من صديقه السكّير الشاعر (ديتريش إيكارت) بكل ذلك الإيمان المطلق المتحمس الذي يبديه التلميذ الجاهل المبتدي، والبلية في الأمر أنه قرر وضعها موضع التطبيق حين سنوح الفرصة!

ولقد رأيناها وخبرنا حقيقتها، اذ هي تقعقع وتطنّ في رأس هتلر؛ تمجيد الحرب والفتح، السلطان اللامحدود للدولة المطلقة، الإيمان بتفوق العرق الآري أو الألماني على الشعوب الأخرى. بغض اليهود والسلافي، احتقار الديمقراطية والمذاهب الإنسانية؛ هذه كلها ليست من مبتدعات هتلر. وإن ثبت أن الوسائل التي اتبعها لتحقيقها كانت من نبات افكاره. هذه الآراء بشرت بها طائفة شاذة من الفلاسفة اللوذعيين غير المتزنين ومن مؤرخين واساتذة اسروا الفكر الألماني خلال ذلك القرن -قبل مجيء هتلر- وكان من نتيجة هذه التعاليم كما تبين- نكبة عظيمة ليس للألمان وحدهم بل لجزء كبير من أبناء البشر.

٣١-(كفاحي) الص ١٥٤، ٢٢٥-٢٢٦.

لا يشك أحد في أن ألمانيا تفخر بعددٍ من أعظم جهابذة العقل البشري في عالم الغرب مثل لايبنتز Leibnitz، وكانت، وهردر Herder وهمبولت Humboldt ولسنك، وغوته، وشلر، وباخ وبيتهوفن وكلهم قدموا للحضارة خدمات فريدة. على ان الثقافة الألمانية التي استظهرت في القرن التاسع عشر ووافق ظهورها بروز ألمانيا البروسية منذ بسمارك حتى هتلر، كانت مبنية بالدرجة الأولى على فلاسفة معينين مثل فيختة Fichte وهيغل Hegel في المبدأ ثم جاء بعدهما (ترايشكه ونييتشه Nietzsche) وریشارد فاكنر، وجماعة كبيرة أقل شهرة وليس أثراً. ومن الغريب أن يكون بينهم فرنسي غريب الاطوار وانكليزي شاذ. ولقد نجح هؤلاء في فتح ثغرة روحية رجعية في فكر الغرب. هذه الثلثة لم تلتئم حتى يومنا هذا.

في العام ١٨٠٧، بعد الهزيمة الساحقة الذليلة التي منيت بها بروسيا على يد نابليون في (ينا Jena) بدأ يوهان كوتليب فيخته Johann Gottlieb Fichte يوجه "خطاباته الشهيرة الى الشعب الألماني" من مدرج جامعة برلين حيث كان يحتل كرسي أستاذ الفلسفة. فاثارت ونظمت الشعب المغلوب المنقسم. وما زال صدى تلك الخطب تراه برن في اجواء الرايخ الثالث. كانت تعاليم (فيخته) خمر مسكرة للشعب المخدول. فهو يرى أن الشعوب اللاتينية ولاسيما الفرنسيين، وشعب اليهود اقوام منحطة تسير الى الفناء. وليس ثم شعب فيه قابلية التجدد غير الشعب الألماني. فلغته أنقى اللغات وأكثرها أصالة. وسيزدهر بهم عصر جديد من عصور التاريخ. وسينعكس فيهم نظام الكون. وستفودهم صفوة منتخبة قليلة العدو متحررة من أي رادع أخلاقي "للطبيعة" الخصوصية. تلك هي جملة من الآراء التي رأينا هتلر يقتبسها ويدونها في (كفاحي).

موت فيخته في ١٨١٤ خلفه (جورج فلهلم فردريك هيغل) في جامعة برلين. كان هذا الدماغ الحاذق النافذ الذي ألهمت جدليته (دايلكتيكه) كلاً من (ماركس ولينين) ولذلك يعد ذا فضل في قيام المذهب الشيوعي. إلا أن تمجيده الرئان بالدولة وسموها المطلق في الحياة البشرية مهد الطريق للرايخ الثاني والثالث فالدولة عند هيغل هي الكل في الكل. ومن بين ما قال عنها أنها أسمى وحي "لروح العالم" وانها "الكون الخلقى" و"فاعلية الفكرة الأخلاقية"، وللدولة "الحق الأعلى تجاه الفرد، الذي كان واجبه الأعلى أن يصير عضواً في الدولة... لأن حق الروح العالمي هو أعلى من كل الامتيازات الخاصة..."

وماذا عن سعادة الفرد في الدنيا؟ يجيب (هيغل) أن "تاريخ العالم ليست إمبراطورية السعادة" وقال "أن فترات السعادة انما هي صحائف خالية من اي تاريخ لأنها فترات اتفاقي، ليس فيها صدام والحرب انما هي المطهر الأعظم في نظر (هيغل) لأنها تعمل "الصحة الشعوب الأخلاقية التي افسدها السلم الطويل، كالريح الشديدة فهي تحفظ البحر من الأسن الذي هو نتيجة الهدوء الطويل". إن المفاهيم التقليدية للآداب العامة وقواعد الأخلاق يجب أن لاتعترض سبيل "الدولة العليا" ولا "أبطالها" الذين يقودونها "يحتل تاريخ العالم نشراً أعلى... إن القوى الأخلاقية التي لا محل لها هنا، يجب ألا تتصادم مع وقائع تاريخ العالم وإنجازاتها. إن أورداد (ابتهاالات) الفضائل الخاصة-

كالتواضع، ومحبة الخير، والوداعة، الصبر- يجب ان لا تُرفع ضدّ تلك الوقائع... [فالدولة] وهي بهذا الشكل من القوة يجب ان تدعس الكثير من الأزهار البريئة - وتستحق سحراً الكثير من الأشياء التي تعترض سبيلها".

وتنبأ (هيغل) بقيام مثل هذه الدولة في ألمانيا. عندما تستعيد البلاد عمقيرتها التي هي هبة الله. وتكهن بأن "ساعة ألمانيا" ستحين وان رسالتها ستكون تجديد العالم. ومن يقرأ (هيغل) يدرك كم ألهمت آراؤه هتلر وكم استمد منها، وان جاءته مشوهة مسموخة. ويبدو ان أعظم كل ما اوصى به هيغل لهتلر كما سنرى في نهاية هذا الفصل. هو ما جاء في نظريته عن الأبطال إنهم "فاعلون" عظماء، أرصدتهم العناية الإلهية المستدقة على الفهم للتعبير عن "إرادة روح العالم". وهذا ما لاءم حاسة هتلر الخلائية برسالته القدرية.

وجاء بعده الى جامعة برلين (هنريخ فون ترايتشكه). وظل منذ ١٨٧٤ حتى وفاته في ١٨٩٦ أستاذ التاريخ فيها. كان أستاذاً محبوباً من الجمهور. تحضر دروسه جموع غفيرة متحمسة فتجد فيها عدا التلاميذ، ضباطاً من هيئة الأركان العامة وموظفين من البيونكرز البرورقراطيين؛ وكان تأثيره على الفكر الألماني في الربع الأخير من القرن، عظيماً جداً، وظلّ هذا التأثير الى أيام فلهم الثاني وهتلر بلاشك. مع ان ترايتشكه كان سكسونياً فقد أصبح بروسيّ النزعة، بروسيّاً أكثر من البروسيين ومجدّ الدولة كما مجدّها (هيغل) واعتبرها السلطة العليا. إلا ان موقفه كان يفوق الأول وحشية: الشعب (الراعايا) يجب ألا يكونوا في الوطن أكثر من عبيد وقال: "ليس مُهماً ما تفكر به ما دمت تطيع". وفاق (هيغل) في انه اعتبر الحرب اسمى تعبير لفاعلية الرجل فالمجد العسكري عنده "هو قاعدة لكل الفضائل السياسية، في كنز أمجاد ألمانيا الغني. كان مجد بروسيا العسكري جوهرة تضاهي قيمتها روائع شعرائنا ومفكرينا" ويرى ان "اللعب الأعمى بالسلم... أصبح عاراً على فكر الجيل وأخلاقه".

"بصرف النظر عن كون الحرب ضرورة عملية، فهي أيضاً ضرورة نظرية وضرورة منطقية. إنه مفهوم (الدولة) يتضمن مفهوم الحرب لأن جوهر الدولة هو القوة... واستبعاد الحرب من العالم، إنما هو أمل، على سخافته، لا أخلاقي بالمرّة. إنه يؤدي الى ضمور عدد كبير من القوى الجوهرية الجليلية للروح البشرية... والشعب الذي يصبح متعلقاً بالأمل الوهمي، أمل السلم الدائم ينتهي بالتفسيخ والانحلال الذي لايرجى شفاؤه - وهو في عزلته المتعالية".

لم تكن فكرة ترايتشكه عن الشعب الألماني عالية ومثله في هذا مثل غوتيه^(٣٢) هذا العبقري الملتاث في نواح أخرى تختلف عن شوقيينية غيره من مفكري القرن التاسع عشر الألمان. فهو في الواقع يعتبر معظم فلاسفة الألمان ومنهم (فخته وهيغل) "نصابين دون أن يشعروا". واستخدم الدعاية

٣٢- قال (غوتيه) مرة: "كثيراً ما شعرت بحزنٍ مريرٍ عندما أتأمل في حال الشعب الألماني. فهو جليل القدر كفرد، وتعس بانس كمجموع. إن مقارنة بين الأمة الألمانية وبين الشعوب الأخرى تشير أحاسيس مؤلمة، احاول التغلب عليها باي طريق مستطاعة." (أحاديث مع ه. لودن H. Luden في ١٣ كانون الثاني عام ١٨١٣. في أحاديث غوته Goethes Gaspraechة، أوسغال بيدرمان Auswahl Biedermann، اقتبسها فلهم رويكه في "حل المسألة الألمانية ص ١٣١.

اللاذعة في كتابه "طرطوفية الشيخ كانت" وقال في كتابه "هو ذا الرجل Ecce Homo: لا يدرك الألمان كم هم سفلة" واستخلص النتيجة التالية "أنتى دخلت ألمانيا، قضت على الحضارة" ووجد النصارى كاليهود مسؤولين على "أخلاق العبيد" التي تدمغ سكان العالم، ولم يكن خصماً للسامية. وأبدى أحياناً تخوفه من مستقبل أوروبا. وراح في سنواته الأخيرة - قبل ان يقفل الجنون عقله، يتلاعب بفكرة الوحدة الأوروبية والحكومة العالمية.

وأرى انه لا يوجد مواطن واحد في الرايخ الثالث لم يتبين بنفسه تأثير (نيتشه) العميق في بناء صرحه. وقد تكون كتبه مملوءة "بالحماقات المضحكة" و"التخريف الصياني" كما قال عنها (سانتايانا Santayana). ومع ذلك فادعاء الكتاب النازيون لايملون من تعظيمه. وكان هتلر لايفتأ يزور متحفه في (فايمر) ويذيع تكريمه للفيلسوف بصور يأخذها له المصورون وهو يحدق تحديقاً وجد عميق بالتمثال النصفي لهذا النابغة.

هنالك وجهة لتقدير (نيتشه) بوصفه أحد مبدعي "مفهوم الحياة" النازي. ألم يندد الفيلسوف هادراً - بالديمقراطية والمجالس النيابية ألم يعظ بإرادة القوة، ويمدح الحرب ويبشر بمقدم الشعب المختار والإنسان الكامل (السوبرمان). بأسلوب حكيمٍ سافر جداً. وللنازي أن يتمثل بكل اعتزاز وفخر بأقواله ومآثره في أي موضوع وهو لا يتردد في ذلك. يقول (نيتشه) في النصارانية "انها اللعنة العظمى، الضلة الكبرى نفسها... اني ادعوها وصمة عارٍ خالدة في جبين البشرية. هذه النصارانية، إن هي الا تعاليم الإشتراكيين أنفسهم". وعن الدولة، والقوة، وعالم الغاية لدنيا الإنسان يقول "لم ير المجتمع في أي فضيلة إلا وسيلة للقوة والمقدرة الى الحرب، الى الفتح والانتقام... المجتمع لايفترض وجوده لذات نفسه بل ليكون هيكلاً داخلياً وصقالة... يرتفع بواسطتها عرق مختار من البشر الى الاضطلاع بواجبات سامية... ليس هناك ما يدعى بحق العيش، بحق العمل، بحق السعادة: فالإنسان في هذا المجال لا يختلف عن أحقر دودة^(٣٣).

ومجد السوبرمان (الإنسان الكامل) بوصفه الوحش المفترس "الوحش الأشقر العظيم. الذي يثب بشراهة الى النصر والفريسة".

والحرب؟ هنا لا يختلف رأي نيتشه عن آراء معظم مفكري القرن التاسع عشر الألمان. ففي كتابه "هكذا تكلم زرادشت" الذي صاغه بلغة الانجيل وأسلوبه. يزعم هذا الفيلسوف قائلاً "فلتحبوا السلام كوسيلة لحرب جديدة. ولتحبوا السلم القصير أكثر من الطويل. اني انصحكم بأن لاتعملوا بل تقاتلوا. لكم أنصح بالنصر لا بالسلام... أتقولون أنه الغرض الصالح الذي يبارك حتى الحرب نفسها؟ أما أنا فأقول لكم: إن الحرب الصالحة هي التي تبارك كل غرض، الحرب والشجاعة صنعتا من جلائل الأعمال

٣٣- أوكل نيتشه للمرأة- التي لم يعرف صلة بها طول حياته- مكانة احط لمكانة الرجل كما فعل النازيون، وصرح ان محلهم هو المطبخ ودورهن الرئيس في الحياة هو انجاب الأولاد المحاربين الألمان ووضع نيتشه رأيه بالشكل التالي: "على الرجل أن يدرّب على الحرب وعلى النساء أن يكن وسيلة لخلق المحاربين وما عدا ذلك هباء وحماقة" وزاد يقول في (هكذا تكلم زرادشت): أنت ذاهب الى المرأة؟ لاتنسى ان تأخذ معك السوط! مما ادى به (برتراند رسل) الى الردّ الفوري "تسع من اصل عشر نساء سينتزعن السوط من يده عنوة. وهو يعلم ذلك حق العلم، ولذلك ابتعد عنهن!..."

ما يفوق كثيراً، الذي صنعه البر".
وأخيراً هناك نبوءة نيتشه عن مجيء الصفوة المنتخبة التي تحكم العالم التي يخرج منها (السوبرمان). ليهتف قائلاً في "الإرادة الى القوة":
"إن عنصراً جسوراً حاكماً يبني نفسه... والهدف هو أن يهيء امكانية تقدير القيم لنوع من الإنسان قوي جداً موهوب بدرجة لاتقاس في عقله وفي ارادته. هذا الإنسان والنخبة الممتازة الملتفة حوله سيصبحون "سادة الأرض".

هذه الثروة التي اطلقها واحد من أنبغ عقليات الألمان لا بد وأنها مسّت في رأس هتلر الأجوف وترأ حساساً. وعلى كل حال فقد إستحلاها لنفسه- ليست الافكار وحدها بل الصيغ الشاذة الطنانة التي اودعها فيها. وكثيراً ما تجد عبارته بالذات "سادة الارض" التعبير المألوف في (كفاحي). ولا يتطرق أي شك في النفس أن هتلر عدّ نفسه (السوبرمان) الذي بشرت به نبوءة (نيتشه).
كان هتلر لايفتأ يقول: "من يريد ان يفهم ألمانيا القومية الإشتراكية فعليه أن يعرف فاكنر (٣٤)", وربما استند في قوله هذا على إساءة فهم مغرض للموسيقار العظيم. إذ مع أن (ريشارد فاكنر) كان شديد التعصب كهتلر في كرهه اليهود، واقتناعه بأنهم يحاولون السيطرة على العالم بالمال. ومع انه ازدرى المجالس النيابية والديمقراطية والمادية، وغباوة البرجوازيين فقد ظلّ يأمل من اعماق نفسه أن "يصيح الألمان بملكاتهم الخاصة وعيقتهم، لا حكماً للعالم بل رافعي مكانته". ولم تكن كتاباته السياسية التي اوحى أساطير ومآثر ألمانيا الحديثة واعطتها "معنى الحياة" التي ادعاها النازيون لأنفسهم ليس بلا مبرر، بل بأوبراته الشامخة. التي تمثل بكل دقة دنيا الألمان الأوائل باساطير بطولاتها، وأهلتها الوثنية المقاتلة وابطالها ومردتها وأبالستها وأثارها الدموية وعنعاتها القبليّة الساذجة، وإيمانها بالقضاء والقدر وجلال الحبّ والحياة ونيل الموت.

أحب (هتلر) فاكنر حبّ عبادة من البداية. وفي ملجأ مقرّ القيادة العسكرية الرطب الكثيب على الجبهة الشرقية الروسية، حيث لم يعد إلا القليل من حياته، وهو يرى مبدأ تحطم أحلامه وتبديدها، تجده مغرمّاً باستعادة ذكرياته عن كلّ المناسبات التي سمع بها الآثار (الفاكنرية) العظيمة، وماذا كانت تعني عنده، وما اوحى له مهرجانات (بيروث Bayreuth) الموسيقية. وزياراته التي لاتعدّ لمنزل الموسيقار (هاوس فنفرید Haus Wahnfried) حيث ما زال يعيش ابنه سيكفريد فاكنر "Siegfried" مع زوجته الانكليزية بالولادة (وينيفريد Winifred) التي كانت واحدةً من أعزّ اصدقائه رداً من الزمن.

هتف هتلر في ليلة ٢٤/٢٥ كانون الثاني ١٩٤٢. بعد وقت قليل من وصول نبأ أول الهزائم الساحقة الألمانية في روسيا: "أي متعة كانت تمنحني كل قطعة من قطع فاكنر!". قالها وهو يحادث جنرالاته واقطاب حزبه ومن بينهم هملر في اعماق الملجأ المحفور تحت الأرض المعروف بـ(فولفكانزه Wolfsschanze) وجار الذئب في راستنبرگ Rastenburg بروسيا الشرقية. وكان الثلج في الخارج يتساقط والبرد القطبي يشيع في الجو تلك الظواهر الطبيعية التي يكرهها كرهاً قتالاً ويخشها خشية

٣٤- ذكرياتي الخاصة يؤيدها أوتو توليشوس Otto Tolischus في كتابه "ارادوا الحرب" ص ١١.

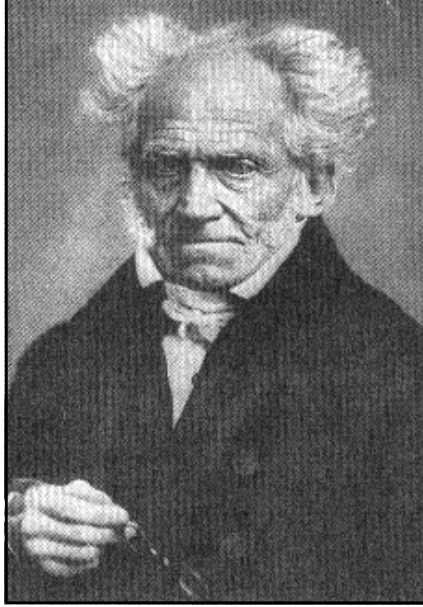
الموت. تلك التي عزا اليها أولى الاندحارات العسكرية الألمانية في الحرب. لكن أفكاره في تلك الليلة كانت في دفة الملجأ منصرفة على الاقل الى استذكار واحد من اهم مصادر الهام حياته قال: "أذكر احاسيسي التي زخرت بها نفسي عند دخولي (فانفريد) لأول مرة. أقول ان العاطفة عقلت لساني! في أسوأ لحظات حياتي لا تفتأ موسيقاه تشيع في العزم والانتعاش. حتى (سيگفريد فاگنر) نفسه. إن صداقتي لهما وصلت الى حدّ المخاطبة بالاسم المجرد ولقد احببتهم جميعاً. كذلك انا أحب (فانفريد)... ما برحت الأيام العشرة لموسم (بيروث) من اجمل مواسم وجودي. وأنه لتتملكني الغبطة عندما افكر بأنني سأكون قادراً يوماً ما على استئناف الحج!"

"وفي اليوم التالي لنهاية مهرجان بيروث... تستولي عليّ حالة عظيمة من الغمّ حتى لكأنما يجرد احدهم شجرة عيد الميلاد من زينتها^(٣٥)."

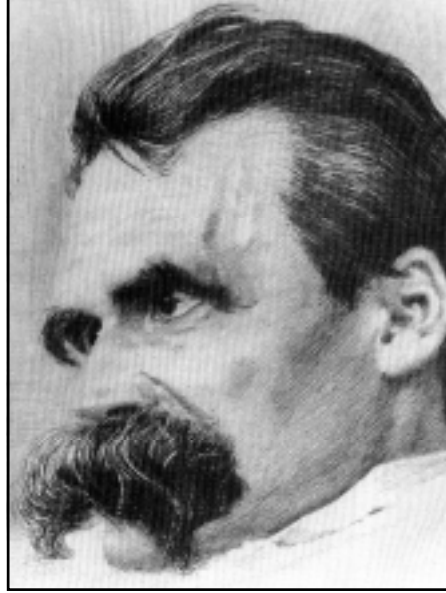
ومع ان هتلر ردد في حديثه ذلك الشتاء انه يعتبر أوبرا (تريستان وإيسولده Tristan und Isolde درة آثار (فاگنر) فان أوبرا خاتم (نيبلونگن) وهي سلسلة تتألف من أربعة أوبرات كاملة - استوحيت من الملحمة الأسطورية الألمانية العظيمة "نيبلونگن لييد Nibelungenlied" وسلبت المؤلف معظم خمس وعشرين سنة من حياته، هي التي قدمت لألمانيا وبخاصة للرايخ الثالث الكثير من أسطورية ألمانيا البدويّة. كثيراً ما تكون أساطير شعب من الشعوب أعلى تعبير وأصدق له روحها ومآثرها الحضارية ولا يصدق هذا على أمة قدر ما يصدق على ألمانيا. حتى لقد جادل (شيللنگ Schelling) في أن "الشعب يأتي الى الوجود بمآثره الأسطورية (ميشولوجيا)... إن وحدة تفكيره التي تعني فلسفة جماعية، تتمثل في مجموعة أساطيره، لذلك فأساطير الأمة تتضمن مصيرها ومستقبلها". وصرّح (ماكس ملّ Max Mell) وهو شاعر معاصر نظم صيغة جديدة "لنشيد النيبلونگن": "في أيامنا هذه لم يبق من آلهة الأغرقي إلا القليل، حتى ان النزعة الإنسانية ارادت أن تمدّ جذورها عميقاً في ثقافتنا... إلا أن (سيگفريد) و(كريمهيلد Kriemhild) ستظلّ أبداً في روح الشعب!"

(سيگفريد وكريمهيلد)، (برونهلد Brunhild) وهاگن (Hagen) أولئك هم الأبطال والبطلات القدامى الذين يريد أن يتشبه بهم كثير من ألمان اليوم والى جانبهم عالم النيبلونگن الوثنى البربري - عالم بطولي لا معقول حافل بالأسرار، يكتنفه الغدر ويسوده العنف ويغرق في النجيع، يبلغ ذروته "بغسق الآلهة Goetterdaemmerung عندما يعمد (فوطان Wotan) الى اضرام النار به (فالهاالا Valhala) بعد كل الالهوال ومصائب الدهر التي عاناها، فتلتهمه ألسنة اللهب وهو في سكرة من إهلاك متعمدٍ للنفس. كل ذلك كان يفتن العقل الألماني ويخلب لبّه ويلقى صدى حنين مريع في الروح الألمانية. هؤلاء الأبطال، وهذا العالم البدائي الشيطاني كانوا دائماً "في روح الشعب" على حدّ قول (ملّ) بالحرف الواحد. إنه ليلمس في تلك الروح الألمانية لمساً؛ الكفاح بين روح المدنية وروح ال(نيبلونگن). وفي الزمن الذي يهتم به تاريخنا هذا بدأت الروح الأخيرة هي الغالبة. ولم يكن بعجيب أن راح هتلر يحذو حذو (فوطان) عندما شاء تدمير ألمانيا في ١٩٤٥. حتى تهوي معه وألسنة النيران تلتهمها.

٣٥- "احاديث هتلر السرية" ص ١٩٨.



شوبنهاور



نيتشه

وفاكتر العبقرى الشامخ الفنان الذى لم يبلغ أحد شأوه، يعنى لهم ما يزيد كثيراً عما ذكرنا آنفاً. إن الصراع فى "أوبرات الخاتم" كثيراً ما يدور حول الشهوة الى الذهب التى جعلها الموسيقىار معادلة لمأساة "الرأسمالية الحديثة" التى يراها والفرع يتملكه- كأنما تريد القضاء على كل الفضائل المنحدرة من الأيام الخالية. ورغم حشده كل هؤلاء الأبطال الوثنيين، لم ييأس تماماً من النصرانية كما يئس (نيتشه*)، ولم تأخذه رافة أو حنان بالعنصر البشرى الكثير الأخطاء المعرّم بالقتال. على ان هتلر لم يكن مخطئاً بالمرّة حين قال: على المرء ان يفهم فاكتر حتى يفهم النازية.

عرف فاكتر (شوبنهاور** Schopenhauer) ومن بعده نيتشه وتأثر بهما وإن خاصمه ثانيهما لأنه رأى أوبراته ولاسيّما أوبرا "پرسيفال Parsifal" تفصح عن انكار للنصرانية فاق كل الحدود. وفى مسرى حياته الطويلة العاصفة إتصل فاكتر برجلين آخرين أحدهما فرنسى وثانيهما انكليزى، وكلاهما على جانب من الأهمية لتاريخنا هذا. لا بسبب التأثير الذى خلفاه فى الموسيقىار [وان كان عميقاً فى مناسبة واحدة] بل لأثرهما على العقل الألماني مما ساعده على التوجه الى ناحية البشارة بمقدم الرايخ الثالث.

* فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) فيلسوف ألماني ناقد للمسيحية. أشتهر بكتابه "هكذا تكلم زرادشت" وخرج للعالم بنظرية السوبرمان (الإنسان الكامل) الذى تسيّره إرادة القوة. أسىء تقديم آرائه كثيراً ولاسيّما من قبل النازيين، وأتخذت آراؤه لتبرير مفاهيمهم بخصوص تفوق الإنسان الأرى.

** آرثر شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠) فيلسوف ألماني أشتهر بنظريته فى "مبدأ الإدارة" والتشاؤم المنظم. أثرت أفكاره فى نيتشه.

هذان الشخصان هما الكونت جوزف آرثر دي كوينو De Gobineau وهو دبلوماسي وأديب فرنسي، وهيوستن ستبورات چمبرلين Houston Steuart Chamberlain أغرب انكليزي عاش في هذه الدنيا. لم يكن أي من الرجلين دعيًا أجوف فكلاهما لودعيان واسعا الاطلاع عميقا الثقافة، بتجارب كثيرة من معاناة الأسفار والحلّ والترحال. ومع هذا فقد صنفا قوانين عنصرية فيها من الزيف والافتراء ما لم يدع أحداً في العالم حتى مواطنيهم ياخذ أقوالهما مأخذ الجد بإستثناء الأمة الألمانية وحدها. لقد باتت نظريتهما الكثيرة المطاعن انجيباً للنازيين ولعلنا لا نبالغ ان قلنا - كما سمعته من أكثر من تابع لهتلر- أن چمبرلين هو المؤسس الروحي للرايخ الثالث. هذا الانكليزي العجيب الذي وجد في الألمان الشعب المختار وأمل المستقبل البشري، أحبّ (فاكتر) حبّ عبادة وتزوج احدى بناته فيما بعد. وأكبرَ شخصية قلهمم الثاني أولاً ثم هتلر أخيراً وكان معلم الإثنين. وتمكن في أواخر حياته العجيبة من تحية نائب العريف النمساوي قبل وصوله الى دست الحكم، وقبل أن يتوقع له أحدٌ تقدماً أو يتوسم فيه أملاً سياسياً بوقت طويل. حيّاه بوصفه رسول الله لقيادة الشعب الألماني واخراجه من التيه. فكان طبيعياً ان يرى هتلر في چمبرلين نبياً. كما اثبت بالدليل.

ماذا في تعاليم هذين الرجلين من آراء لقحت الألمان بلوثة من الجنون في مسألة العرق ومصير ألمانيا؟

كان أثر (كوينو) الأعظم كتاباً بأربعة مجلدات نُشر في باريس ما بين السنوات ١٨٥٣ و ١٨٥٥ بعنوان "رسالة في عدم التساوي بين الاجناس البشرية Essai sur l'Inegalite des Races Humaines" ومن سخرية القدر أن هذا الارستقراطي الفرنسي بعد ان خدم ضابطاً في الحرس الملكي، بدأ حياته العامة بوظيفة رئيس سكرتيري Chef de Cabinet لألكسيس دي توگڤيل Alexis de Tocqueville عندما قضى هذا الكاتب الأشهر مؤلف كتاب "الديمقراطية في أمريكا" فترة قصيرة في الوزارة في ١٨٤٨. وبعدها سافر الى هانوفر وفرانكفورت بوظيفة (دبلوماسية). ومن مخالطته الألمان لا من عمله مع (توگڤيل) استمد نظرياته في التفاوت العرقي، على انه اعترف مرة أن من أسباب تأليف كتابه هو البرهان على تفوق أسلافه الارستوقراط.

يرى (كوينو)- كما ذكر في تقديمه الكتاب الى ملك هانوفر، ان مفتاح التاريخ والحضارة هو العرق. "مسألة العرق تسود كل مشاكل التاريخ الأخرى... إن التفاوت العرقي كاف لتفسير كل مظاهر مصائر الشعوب". وهنالك ثلاثة عروق رئيسة: الأبيض والأصفر والأسود. والأبيض هو الأعلى وزعم "أن التاريخ يبرهن على ان العرق الأبيض هو مصدر المدنية ولم تقم حضارة ولن تقوم بدون تعاون هذا العرق". ودرّة العرق الأبيض هو الجنس الآري "تلك الأسرة البشرية الممتازة، الأشرف بين العرق الأبيض التي نبعت أصولها من أواسط آسيا". ثم يقول: لسوء الحظّ يعاني الآري المعاصر من الاختلاط العرقي مع اجناس أخط منه كما يجد المرء في جنوب أوروبا في أيامه. على ان الآريين ما زالوا يعيشون عرقاً ممتازاً وإن كانوا بعيدين عن النقاوة - في الشمال الغربي من أوروبا فوق الخطّ الممتد تقريباً على طول نهر السين وشرقي سويسرا. ويشمل هذا بعض الفرنسيين، والانكليز كلهم

والايرلنديين، وسكان الأراضي المنخفضة والراين وهانوفر والاسكنديناقيين. ويبدو من هذا أن (گوبينو) أخرج الجزء الكبير من الألمان الذين يعيشون شرق هذا الخط وجنوبه الشرقي وهو ما تغاضى عنه النازيون وتجاهلوه عندما اعتنقوا تعاليمه.

ورغم ذلك يرى (گوبينو) أن الألمان - أو على الأقل الألمان الغربيين هم خير الآريين. وهذا الاكتشاف لم يَغضِ النازيون عنه الطرف. ولقد وجد ان التقدم كان يسير في ركاب الألمان أتى حلوا. وهذا يصدق حتى في الإمبراطورية الرومانية فهؤلاء الذين أطلق عليهم قبائل الجرمان البرابرة الذين تغلبوا على الرومان وقوضوا إمبراطوريتهم أدوا عملهم هذا خدمة جليلة للحضارة لأن الرومان في القرن الرابع الميلادي باتوا لا أكثر من هجناء متفسخين في حين كان الجرمان آريين خالصاً نسبياً. واستطرد يقول "إن الآريين الألمان هم مخلوقات شديدة القوة... وكل ما يفكرون ويقولون ويعملون، ذو أهمية كبيرة".

وراجت آراء گوبينو في ألمانيا بسرعة. واعتنقها (فاكنر) وتحمس لها وكان قد التقى بالفرنسي في العام ١٨٧٦ وهو في أراذل عمره (توفي في ١٨٨٢). وما لبث أن خرجت (جمعيات گوبينو) الى الوجود في كل بقعة من ألمانيا ولم تقم واحدة في فرنسا.

-٤-

حياة "جمبرلين" العجيبة وكتابه الغربية

من بين الأعضاء المتحمسين لجمعية (گوبينو) بألمانيا، (هيوستن ستبورات جمبرلين). الذي مثلت حياته وكتابه واحدة من اروع النكات المضحكة في مجرى التاريخ القاسي الذي أدى الى قيام وسقوط الرايخ الثالث.

هذا الإبن، سليل أحد أمراء البحر الانكليزي وإبن أخ الفيلد مارشال الانكليزي السر نجيل جمبرلين Sir Neville Chamberlain، وجنرالين انكليزيين آخرين، ثم صهر (ريشارد فاكنر)، ولد في ١٨٥٥ في پورتسموث. وكان مقرراً دخوله في سلك الجيش أو البحرية البريطانية لكن سقم بدنه حال دون تحقيق تلك النية ونال تعليمه في فرنسا وجنيف حيث أصبحت الفرنسية لغته الأولى. وتعرّف صدفة فيما بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة من عمره على صديقين ألمانين ومنذ ذلك الحين فصاعداً راح ينجذب الى ألمانيا بدافع لا يقاوم. حتى أصبح أخيراً مواطناً ألمانياً واحداً من مشاهير مفكريها، كتب بلغتها كل كتبه العديدة وكان لطائفة كبيرة منها تأثير أعمى على قلهم الثاني وأدولف هتلر وما لا يحصى من الألمان الأقل مركزاً وشأناً.

في ١٨٧٠ وجد جمبرلين نفسه وهو في الخامسة عشرة بين يدي مربٍ شهير اسمه (أوتو كونتز Otto Kantze) وهو بروسي شديد التعصب للبروسية ظلّ هذا طوال أربع سنين يطبع في دماغ الفتى المستوفز المستوعب وفي نفسه الحساسة أمجاداً بروسيا المحاربة الفاتحة وأيضاً -دون اكتراث للتناقض- دروساً

عن الفنانين والشعراء أمثال بيتهوفن وگوته (وشيللر وفاگنر) وفي التاسعة عشرة توله چمبرلين بحب (آنا هورست Anna Horst) وهي بروسية تكبره بعشر سنوات وتشكو مثله علة عصبية شديدة. ونزح الى (بيروث) في ١٨٨٢ من (جنيف) وله من العمر سبعة وعشرون، بعد ان غرق ثلاث سنين في دراسات الفلسفة والتاريخ الطبيعي والفيزياء والكيمياء والطب. وفي (بيروث) التقى (بفاگنر) الذي الذي أصبح شمس حياته على حدّ قوله. وكذلك عرف (كوزيما Cosima) زوج الموسيقار التي ظلت موضع إخلاصه وحبّ العظیم بقیة أيام حياته. وأصبح ألمانياً فکراً ولساناً عندما ذهب هو (وآنا هورست) زوجه لیسکن (درسدن) في ١٨٨٥. وليقضي فيها أربعة أعوام. ثم نزح الى فيينا في ١٨٨٩ وبقي فيها عشر سنوات. وأخيراً عاد الى (بيروث) في ١٩٠٩ حيث توفي في ١٩٢٧. طلق زوجته المعبودة البروسية في ١٩٠٥ عندما كان يبلغ الستين وقد زادت علتها البدنية والعقلية وطأة (كان الطلاق مؤلماً له حتى كاد يقضي عليه- كما قال) وبعد ثلاث سنوات تزوج (إيفاً فاگنر) واستقر بالقرب من (فانفريد) ليكون لصيقاً بأمر زوجته. لقد كان عظیم الإحترام لـ(كوزيما) القوية الإرادة.

كان چمبرلين المريض بالأعصاب والشديد الحساسیة يتعرض لكثير من نوبات الإنهيار العصبي، "يرى شياطين وجناً تدفعه بلا هوادة الى البحث عن ميادين جديدة للدراسة، والمضي قدماً في كتاباته الضخمة" على حدّ قوله. وكانت الرؤى بعد الرؤى تدفعه دفعاً من التحول عن البيولوجي الى علم النبات الى الفنون الجميلة الى الموسيقى، الى الفلسفة، الى علم السيرة الى التاريخ، ومرة في ١٨٩٦ بينما كان عائداً من إيطاليا ركب شيطان فريد وظلّ يشد عليه شداً عنيفاً حتى اضطره الى ترك القطار في محطة گاردوني Gardone واغلق عليه باب غرفته في الفندق ثمانية أيام بطولها تاركاً عملاً موسيقياً كان يفكر فيه، وراح يكتب كالمحموم في رسالة حول علم السيرة حتى وصل الى جرثومة الموضوع الذي قدر له أن يسيطر على كل كتاباته التالية ألا وهو "العرق والتاريخ".

مهما كانت عيوب چمبرلين، فان دماغه المتشعب الاطراف ضرب بسهم وافر من الأدب والموسيقى والبيولوجيا وعلم النبات وعلوم الدين والتاريخ والسياسة. وكما قال "جان رايال Jean Real"^(٣٦) هناك وحدة إلهام عميقة الغور في كل كتبه المطبوعة ويتجلى فيها تناسق ومطابقة فائقة. منذ أن شعر بملاحقة الشياطين وهو يدون كتبه عن (فاگنر وگوته، وكانت، والنصرانية والعرق) في سعار من حمى عنيفة وفي غيبوبة فعلية وحالة سكر تفقده الوعي تماماً دون أن يبين لها أثر خارجي حتى أنه لا يكون قادراً في كثير من الأحيان (كما ذكر في سيرة حياته) Lebenswege. على تذكر كتابته إياها لأنها فاقت حدود تصوره إن عقولاً أكثر إتزاناً من عقله نقضت كل نظرياته في العرق وأغلب نظرياته التاريخية فيما بعد. ووجد الباحث الفرنسي في "الألمانيات" إدموند فرمي Edmond Vermeil، أن آراء چمبرلين، في أساسها ضحلة "Shoddy"، في حين أن كاتب السيرة الهتلرية الألماني (كونراد هايدن) المعادي للنازية الذي كان شديد الأسف لتأثير تعاليمه العرقية، يرى چمبرلين "واحداً من أعجب الموهوبين في تاريخ الفكر الألماني... منجم للمعرفة، والآراء العميقة".

٣٦- انظر دراسته عن چمبرلين في كتابه "الرايح الثالث" طبعه Bauman, Fried and Vermeil.



القيصر قلهلم الثاني

إن الكتاب الذي اثر في هذا الاتجاه من العقل الألماني اعمق تأثير، وهلل له (قلهلم الثاني) وكبير، وزود النازيين بضلالتهم العرقية هو "أسس القرن التاسع عشر Grundlagen des Neuzehnten Jahrhunderts" ويقع في زهاء ألف ومائتي صفحة. كتبه جمبرلين في إحدى زورات واحد من "شباطينه" وركوبها بين كتفيه طوال تسعة عشر شهراً تقع بين (١) نيسان ١٨٩٧ و(٣١) تشرين الثاني ١٨٩٨ في فيينا. وقد طبعه في ١٨٩٩.

وجد (جمبرلين) مثل (كوبينو) الذي اعجب به - أن مفتاح التاريخ، أو بالأحرى أسس المدينة تكمن في العرق. ولشرح اوضاع القرن التاسع عشر، أعني الدنيا التي يعيش فيها - على المرء أن يتأمل أولاً فيما خلفته له القرون الخالية. قال جمبرلين انها ثلاثة: فلسفة الاغريق وفنونهم، والشريعة الرومانية، وشخصية المسيح. وهنالك ايضاً ثلاثة ورثة: اليهود

والألمان "وهما الجنس النقيان" والجنس المولد: وهم لاتين البحر الابيض المتوسط الذين هم "فوضى من الشعوب" كما اطلق عليهم. والألمان وحدهم المستحقون هذا التراث العظيم، الحق يقال أنهم دخلوا التاريخ متأخرين (ليس قبل القرن الثالث عشر) لكنهم حتى بتقويضهم الإمبراطورية الرومانية قبل ذلك، قدموا الدليل على قيمتهم، وهو يقول: "ليس صواباً القول أن البربرية التيوتونية أذنت بقدم ما يطلق عليه (ليل العصور الوسطى)؛ فهذا الدليل كان نتيجة حتمية للإفلاس الخلقي والثقافي الذي آلت اليه الإنسانية السابحة في فوضى اللاعرقية، مما غذته الإمبراطورية الرومانية المحتضرة. ولولا التيوتون لحيم على العالم ليل بهيم أبدي". ووجد وقت كتابته هذا. أن التيوتون هم الأمل الوحيد للعالم. وأدخل جمبرلين الى أسرة (التيوتون) الكلتيين Celts والسلاف، إلا أن (التيوتون) هم اهم عنصر. على أنه كان كثير الغموض في تعاريفه. وصرح في إحدى المواقف "كل من يتصرف تصرف التيوتون، فهو تيوتوني مهما كان أصله العرقي" ولعله كان يفكر هنا بأصله اللألماني. ومهما كان نسبة الدم التيوتوني الخالص الموجود في ابنائها... الحق يقال أن التاريخ يبدأ في اللحظة التي يضع التيوتوني قبضته الحاذقة فوق تراث العصور الغابرة."

وماذا عن اليهود؟ خصهم المؤلف بأطول فصل من كتابه "الأسس" فجمبرلين كما رأينا - يدعي أن اليهود والتيوتون هما العرقان النقيان الوحيدان الباقيان في الغرب. وهو يدين في فصله هذا "فكرة

معاداة السامية الحمقاء البغيضة. "ويقول ان اليهود ليسوا شعباً "منحطاً" بالنسبة الى التيبوتون بل هم مختلفون عنه ليس إلا. فلديهم أمجادهم الخاصة، وهم يدركون "الواجب المقدس" واجب الإنسان في المحافظة على نقاوة الدم. ومع هذا ففي أثناء قيامه على تحليل اليهود لم يشعر إلا وهو ينزلق في معاداة السامية بالفظاظة المعهودة ناسياً أنه أدانها في الآخرين. مما أدى في النهاية الى بذاءات (يوليوس شترايخر) الكاريكاتورية عن اليهود في جريدته "دير شتورمر" أيام هتلر. والواقع أن كثيراً من القواعد "الفلسفية" المعادية للسامية تنبع من هذا الفصل.

سرعان وضحت آراء جمبرلين التي لا يقبلها العقل ويدت للملأ عارية. لقد صرح أن شخصية المسيح هي إحدى ثلاث تركت خلفها الأقدمون للحضارة الحديثة ومن ثم راح "يبرهن" على ان المسيح ليس يهودياً. فأصله الجليلي وعجزه عن النطق السليم بالعامية الآرامية، هي أدلة (جمبرلين) "الواضحة" أن دم المسيح فيه نسبة كبيرة من الدم اللاسامي". وبعد ذلك استخلص النتيجة القاطعة النموذجية: "من يزعم أن يسوع يهودي لا يعدو أن يكون إما غيبياً أو كاذباً. فيسوع ما كان يهودياً".

فماذا كان اذن؟ يجيب جمبرلين على ذلك: لعلة آري! إن لم يكن كذلك بالدم الخالص، فيسبب تعاليمه الأخلاقية والدينية بلاشك ولعارضته الشديدة للمادية والصورية الذهنية "abstract formalism" للدين اليهودي. فكان من الطبيعي -لجمبرلين على الأقل- أن يقوم المسيح "إلهاً للشعوب الهندوروبية الفتية التي تتدفق بالحياة" وبخاصة إله التيبوتون "إذ لا يوجد شعب آخر مثل الشعب التيبوتوني حسن التهيئة لسماع صوته الألهي".

ثم تلا ذلك ما زعم أنه تاريخ مفصل للقومية اليهودية منذ أيام امتزاج الساميين أو بدو الصحراء بالحشيين ذوي الرؤوس المستديرة الذين لهم "انف يهودي" وأخيراً مع العموريين الذين هم آريون. ولسوء الحظ إن الهجين (يقول أن العموريين كانوا طوال القامة شقراً ضخام البنية) جاء متأخراً جداً لتحسين العرق العبراني المتحلل تحسیناً حقيقياً. ومن هنا فصاعداً يروح الانكليزي ينقض نظريته كلها عن نقاوة الأمة اليهودية فيرى أنهم أصبحوا عرقاً "سالباً" "نغلاً". لذلك كان الآريون محقين في "إنكار" إسرائيل. وهو في الواقع يدين الآريين لإكسائهم "هالة من المجد الزائف" ثم يجد اليهود "يفتقرون الى الدين الحق افتقاراً اليماً".

وطريق الخلاص في اعتقاد جمبرلين هي بالتيبوتون وبشقاقتهم ومن التيبوتون كان الألمان أسماهم وارفعتهم شأناً لأنهم ورثوا خير فضائل الاغريق والهندوروبيين. وهذا ما يمنحهم حق السيادة على العالم "أن الله يبني صرح اليوم على الألمان وحدهم... هذه هي المعرفة، الاكيدة والحقيقة التي أفعمت بها روحي عدة سنين".

خلق نشر "أسس القرن التاسع عشر" شيئاً يشبه الضجة. وأصعد الانكليزي الغريب الى عالم الشهرة فجأة في ألمانيا. ومع غلبة الفصاحة عليه، وأسلوبه المحكم- لأن جمبرلين كان أديباً فناناً مطبوعاً- فقراءته ليست سهلة. لكن سرعان ما تخاطفته ايدي الطبقة العليا التي بدت وكأنها وجدت فيه ما نشدت الأيمان به وبلغت طبعاته ثمانية خلال عشر سنوات وبيع منه ستون ألف نسخة وفي أيام

نشوب الحرب العظمى الأولى ١٩١٤. كان ما بيع منه مائة ألف. وراج ثانية في عهد النازية واتذكر إعلاناً عن الطبعة الرابعة والعشرين منه في ١٩٣٨. في هذا التاريخ وصل ما بيع منه أكثر من ربع مليون نسخة.

ومن أول قرائه وأكثرهم تحمساً، القيصر فلهم الثاني. فقد دعا (جمبرلين) الى قصره في (پوتسدام) وتوثقت من أول مقابلة بينهما عرى صداقة استمرت حتى نهاية حياة المؤلف ١٩٢٧. وتواصلت مراسلات طويلة فيما بعد. وكان بعض الرسائل الثلاث والأربعين التي وجهها جمبرلين للقيصر (أجاب فلهم على ثلاث وعشرين منها) مقالات أو مواضيع مسهبة استخدمها الإمبراطور في عددٍ من خطبه الرنانة وتصريحاته الطنانة. وكتب القيصر في احدى رسائله اليه "إن الله هو الذي أرسل كتابك الى الشعب الألماني وأرسلك اليّ شخصياً". كان تذلل (جمبرلين) ومبالغته في المداهنة والملق مما يصيب المرء بالقيء. كتب يقول "إنك يا صاحب الجلالة وشعبك قد ولدتما في هيكل مقدس"، وأخبر فلهم بأنه وضع صورته في مكتبه مقابل صورة المسيح للرسام (ليوناردو) حتى اذا ما قام يتمشى كما اعتاد أن يفعل أثناء العمل، فانه يروح ويغدو بين صورتني مخلصه وملكه.

ولم تمنعه عبوديته من عرض النصائح باستمرارٍ على الملك الصلب الرأس الشديد الغرور. وفي ١٩٠٨ بلغت المعارضة العامة لفلهم ذروتها مما ألجأ الرايخشتاغ الى منعه من التدخل السيء النتائج في الشؤون الخارجية. إلا أن جمبرلين نصح الإمبراطور بأن الرأي العام يكوّنه البُلّه والخونة وعليه ألا يكثرث به، فما كان من فلهم إلا أن اجاب أن كليهما سيقفان معاً "انت تشرع قلمك، وأنا لساني [و] سيفي العريض".

وظلّ الانكليزيّ يذكر الإمبراطور برسالة ألمانيا ومصيرها فكتب له بعد نشوب الحرب العالمية الأولى "ما ان تجمع ألمانيا السلطان في يدها - ولنا ان نتوقع ذلك بكلّ ثقة- حتى يتحتّم عليها البدء في تطبيق السياسة العلمية للعبقرية. لقد اضطلع (اغسطس) بمهمة تغيير العالم بقواعد تنظيمية، وعلى ألمانيا ان تفعل المثل... مجهزة بأسلحة دفاعية وهجومية، منظمة تنظيم الجيش الدقيق المتراص البنيان. متفوقة على الجميع في الفن والعلم والتكنولوجيا والصناعة والتجارة والمال، في كل حقل، وبالاختصار، معلمة وقائدة دفة، ورائدة للعالم، كلّ رجلٍ في مجال عمله، كل رجل يقدم أقصى ما يمكن بذله للقضية المقدسة- وهكذا... ستفتح ألمانيا العالم بتفوقها الذاتي".

ولتتشير به هذه الرسالة المجيدة لوطنه المتبنّي (أصبح متجنساً بالجنسية الألمانية ١٩١٦) في منتصف فترة الحرب. قلّده القيصر وسام الصليب الحديديّ.

لكن أثر هذا الرجل الانكليزي على الرايخ الثالث كان الأكبر والأعمق مع انه لم يكتحل بمرآه. فقد مات قبل قيامه بست سنوات على انه تبنياً به، واخذ عنه النازيون نظرياته العرقية واحساسه الملتهب برسالة الألمان وألمانيا وعظموه كنبّي من انبيائهم. وانصبّت الكتب والكراريس والمقالات أيام حكم النازيين من المطابع تمجّد "المؤسس الروحي" لألمانيا القومية الإشتراكية. وحاول (روزنبرگ) كثيراً بوصفه أحد مثقفي هتلر، إظهار اعجابه وتحمسه للفيلسوف الانكليزي أمام (الفوهرر). ومن المحتمل

أن أول معرفة هتلر بكتابات چمبرلين كان قبل نزوحه الى فيينا، لأنها كانت منتشرة بين الألمان
الوحدويين Pan Germanis والجماعات المعادية للسامية التي انكب يلتهم أدبياتها بشراهة في أيامه
الأولى تلك، ومن المحتمل أيضاً أنه قرأ بعض مقالاته الشوفينية أثناء الحرب. وظهر في (كفاحي)
أسفه لأن آراء چمبرلين لم تعط ما تستحق من الإهتمام أثناء قيام الرايخ الثاني.
كان چمبرلين واحداً من أوائل المثقفين في ألمانيا الذين توقعوا مستقبلاً عظيماً لهتلر وفرصاً جديدة
للألمان إن تبعوه. لقد إلتقى هتلر به في (بيروث) ١٩٢٣ ومع انه كان مريضاً نصف مشلول تشيع في
نفسه الخيبة من جراء هزيمة ألمانيا وسقوط إمبراطورية آل هوهنزرن وفيها إنهار كل آماله وبطلان كل
نبؤاته!- ما كان منه إلا أن استوى قائماً على رجليه بتأثير بلاغة النمساوي الشاب. وأسرع يكتب
اليه في اليوم التالي: "ستقوم بأعمال خارقة... لم يهتز إيماني بالجرمانية لحظة واحدة وان كان أملي -
وانا أقر بهذا- قد تدنى الى الحضيض... بضربة واحدة أحدثت تغييراً تاماً في حالتني الروحية. ان
ألمانيا برهنت على حيويتها الدفاعة بولادتها هتلراً في اشد وقت من اوقات الضيق. كما تفعل
المؤثرات التي تنبثق منه، ان هاتين الشعبيتين (الشخصية والتأثير) تعودان إحداهما الى الأخرى...
واني لأرجو من الله ان يردك!"

جرى هذا في وقت كان أدولف هتلر، بشارب شارلي شابلي، وطباعه العريضة وتطرفه العنيف
المستهجن، يعتبر مسخرةً ودعاية عند معظم الألمان. لايلتف حوله إلا قليل من الأعوان. إلا ان
مغنطيسية شخصيته الجاذبة عملت عمل السحر في الفيلسوف الشيخ وجددت إيمانه في الأمة التي
اختارها واشاد بها. وأصبح چمبرلين عضواً في حزب النازي الوليد وبدأ يكتب بقدر ما سمحت له
حالته الصحية- لمنشوراته الخاملة. وفي إحدى مقالاته المنشورة في ١٩٢٤ حياً هتلر الذي كان آنذاك
سجيناً ووصفه بقدر الله الذي أرسله لقيادة الشعب الألماني. القدر اختار فلهم الثاني لكنه اخفق،
والآن ها هنا أدولف هتلر. احتفل بالميلاد السبعين لهذا الانكليزي الشهير في ٥ أيلول ١٩٢٥
بافتتاحية تتألف من خمسة اعمدة في جريدة (فولكشر بيوباختر) النازية ووصفت كتابه "الأسس" بأنه
"انجيل الحركة النازية" وبعد ستة عشر شهراً أسجي في قبره (١١ كانون الثاني ١٩٢٧) مفعماً
بأعرض الأمال في أن ما بشر به وتنبأ، سيكتب له التحقيق بالهدي الإلهي لهذا المسيح الألماني
الجديد.

كان هتلر الشخصية الشهيرة الوحيدة التي حضرت جنازة چمبرلين الى جانب أحد الأمراء ممثلأ عن
القيصر فلهم الثاني الذي لم يكن يستطيع العودة الى الارض الألمانية. وذكرت (فولكشر بيوباختر)
في خبر نعي الانكليزي أن الشعب الألماني فقد "واحداً من أعظم صانعي السلاح. لم تستخدم بعد
أسلحته إستخداماً كاملاً حتى يومنا هذا" وما كان ليتسنى قط لا للشيخ نصف المشلول الذي يعاني
سكرات الموت ولا حتى لهتلر نفسه ولا لأي شخص آخر في ألمانيا أن يتكهن في ذلك الشهر الغائم
كانون الثاني ١٩٢٧ عندما كانت أحوال الحزب النازي قد تردت وسقت الى الحضيض^(٣٧)، كم سيكون

٣٧- إن البحث ابتداءً من چمبرلين حتى فخته وهيكل مبني على آثار المؤلفين وعلى بعض التفاسير والمقتبسات من =

سريعاً وسريعاً جداً إستخدام تلك الاسلحة التي زيفها هذا الانكليزي الذي نما في تربة غير تربة اجداده. وكم سيبلغ إستخدامها من اتقان وكمال، بل اية نتائج مريعة كان سيسفر عنه استخدامها. على ان هتلر كان يحسّ احساساً دفيناً برسالته في العالم، ذلك الحين أو قبله. فكتب يقول "من ملايين الرجال... رجلٌ واحد يجب ان يبرز الى أمام، رجل يبني بالقوة الغاشمة apodictie مباديء في صلابة الصخر الصواني من مُثُل العالم المتخاذلة لأوسع الجماهير ويضطلع بأمر الكفاح في سبيل تصحيحها ليخرج من الموج السريع للفكر العالمي الحر جرف صخري اشم للوحدة المكنية في الإرادة والإيمان^(٣٨).

ولم يترك شكاً في عقول قرائه بأنه يعتبر نفسه ذلك "الرجل الواحد". و(كفاحي) مطرز بمقالات صغيرة عن دور العبقري الذي اناطت به العناية الإلهية قيادة شعب عظيم وانتشاله من متاعبه والوصول به الى المجد المؤثل. وان لم يفهمه ذلك الشعب في مبدأ الأمر أو يقدر قيمته. ويدرك القاريء بهذه العبارة الأخيرة أن هتلر انما يشير الى حالته الزرية آنذاك فالعالم لم يعرفه بعد على حقيقته. لا بأس، فهذا هو حظّ العباقر في مبدأ حياتهم دائماً. ومن الضروري أن يوجد مؤثر من المؤثرات لدفع العبقري الى المسرح وعندئذ تبدأ مقاومة العالم وأبى أن يؤمن بأن النوع الذي يلائمه في الظاهر انما هو كائن مختلف جداً حتى يجد ذلك فجأة. وتلك هي الحكاية نفسها تتكرر عند كل عظيم من بني الإنسان... إن شرارة العبقرية هي في دماغه الخلاق الحقيقي منذ ساعة ميلاده، والعبقري الأصيل هو عبقري بالفطرة ولا يكسب عبقريته بالتحقيق والعلم^(٣٩).

أما من ناحية الكيف والنوع فيرى أن الرجل العظيم صانع التاريخ هو "مزيج من السياسي الواقعي والمفكر" يتفق في فترات طويلة من تاريخ البشرية ان يحصل إندماج في شخصية السياسي والنظري. وكلما ازداد إندماجهما عمقاً كلما كثر العوائق التي تعترض سبيل السياسي وهو لا يعود يعمل للحاجات التي يفهمها أول (بقال) جيد لكنه يعمل لأهداف لا يفهمها إلا النزر اليسير من الناس. لذلك توزعت حياته بين الحبّ والبغض. إن معارضة المحاضر الذي لا يفهمه انما هو كفاحه في سبيل

= جمهرة من الكتاب مثل "الفلسفة الألمانية وسياستها" بقلم جون دويوي John Dewey، و"الكارثة الألمانية" بقلم فردريك وينغ و"حلّ المسألة الألمانية" بقلم فلهم رويك، و"تاريخ الفلسفة الغربية" بقلم برتراند رسل وكتاب "هكذا تكلم زرادشت" طبعة" و. و. كول W. W. Coole " و"م. ف. بوتتر M. F. Potter ". والرايخ الثالث نشره باومنت فريد وفريمي. و"القومية الألمانية: مأساة شعب" بقلم لويس شنايدر Snyder و"التاريخ الألماني: نظرات جديدة عامة" نشره هانس كون Hans Cohn. و"قيام وانحلال النازية الألمانية" بقلم "ت. ل. يارمان T. L. Jarman. و"الفوهرر" بقلم كونراد هايدن. و"مسرى التاريخ الألماني" لتاييلور. و"ألمانيا المعاصرة" بقلم ادموند فريمي. و"تاريخ ألمانيا" بقلم هرمان بينوف. ودراسة "ي.ايك E. Eayck"، "بسمارك والإمبراطورية الألمانية"، قيمة جداً في هذا الصدد. إن ضيق المجال في كتاب مثل هذا حال دون بحث تأثير عدد من المفكرين الألمان في قيام الرايخ الثالث. وكانت كتاباتهم معروفة واسعة الانتشار مثل: شليگل Schlegel وج. كويريس J. Coerres ونوفالس Novalis وارندت Arndt ويان Jahn ولاغارد La-garde وليست ودرويسن Droyson ورانكه ومومسن Mommsen وقسطنطين فرانتز وستويكر Stoecker وبرنهاردت كلاوس فاكنر Bernhardt Klaus Wagner ولانكين Langbehn ولانغ Lang وشينغلر.

٣٨ - كفاحي ص ٣٨١.

٣٩ - المرجع السالف ص ٢٩٣.

اعتراف الجيل الآتي به وهو الهدف الذي يعمل له ذلك الرجل وهكذا كلما عظمت أعمال الرجل لأجل المستقبل كلما قل فهم الحاضر لتلك الأعمال فاشتد في قتاله صلابة وعنفاً^(٤٠).

كتبت هذه الأسطر في العام ١٩٢٤ حين كانت قلة من الناس تعلم ما يجول في رأس الرجل وهو نزول السجن بجرّ أذيال الخيبة، وخمول الصيت بعد اخفاقه في مؤامراته. تلك الأويرا الهزلية! غير ان ثقته بنفسه لم تتزعزع وشكته في صدق رسالته لا مكان له. ونحن لاندرى أقرأ لـ(هيگل) أم لا، لكن يتضح جداً من كتاباته وخطبه أنه كان واقفاً على شيء من آراء هذا الفيلسوف. هذا إن ظلّ قانعاً بما كسبه منها خلال احاديثه مع معلميه الأوائل (روزنبرگ وإيكارت وهيس) ولم يزد عليها. غير أن دروس (هيگل) الشهيرة في جامعة برلين لا بدّ استرعت إهتمامه كما وأنه اقتبس ما لا يحصى من أقوال (نيتشه) الفيلسوف الألماني.

كنا فيما سلف، قد اتينا باختصار على مصادر نظرية (هيگل) في الأبطال تلك النظرية التي سحرت العقل الألماني. كان قد شرح في أحد دروسه الجامعية ببرلين كيف ينجز "أفراد التاريخ العالمي" إرادة روح العالم قال "قد يسوغ تسميتهم (بالأبطال) ما داموا يستمدون غاياتهم ودعاوهم لا من السبيل المنتظم الهاديء للأشياء التي اقرها النظام الحالي بل من الواجهة المخفية من الروح الدفينة التي ما تزال كامنة تحت السطح تطلع impisge على العالم الخارجي قشرة وتنفجر الى شظايا. كذا كان الاسكندر وقيصر وناپوليون رجالاً سياسيين عمليين. الا انهم كانوا في الوقت نفسه أناساً مفكرين ذوي بصيرة نافذة في متطلبات العصر الناضجة للتطور. تلك هي الحقيقة نفسها لعصرهم ولدنياهم... ومن شأنهم وحدهم أن يعرفوا هذا المبدأ الأولي، الضرورة، الخطوة المباشرة التالية في النجاح. انها دنياهم التي يأخذونها أخذاً وان يجعلوا ذلك هدفهم وأن يوقفوا نشاطهم على تطويرها. رجال التاريخ العالمي، أبطال عصر من العصور. يجب والحالة هذه أن ينظر اليهم باعتبارهم رجالها الواضح التفكير، وأعمالهم وكلما تهم هي خير ما في أزمانهم^(٤١).

لاحظ المشابهة بين هذه الفقرة والمقتبس الذي سبقها من (كفاحي)، اندغام السياسي والمفكر الذي يولد بطلاً "شخصية التاريخ العالمي" الإسكندر، قيصر، ناپوليون إن وجد فيه هذا الازدواج الذي كان فيهم وهو ما أصبح هتلر على اتم الثقة منه. فلماذا لا يصبر الى أن يدخل في عدادهم؟ في أقوال هتلر توجد نغمة سائدة وهي ان الزعيم الأعلى وهو فوق أخلاق الإنسان العادي وهذا هو تفكير (هيگل) ونيتشه أيضاً وقد رأينا فكرة (هيگل) "ان الفضائل الخاصة" و"الحقوق الأخلاقية المزعومة" يجب ألا تقف في طريق الحكام العظام وان لاتغلب الصّفراء عليهم إن وطئوا الأبطال أو "سحقوا" كثيراً من الأزهار البريئة وهم في طريقهم الى مصائرهم. أما (نيتشه) فقد ذهب الى أبعد من هذا كثيراً في مبالغته الغربية:

"يتخذ الرجل القوي السيّد، ذلك الضمير النقيّ للوحش المفترس، الوحوش مملوءة فرحاً إذ تعود بعد

٤٠- المرجع السالف الص ٢١٢-٢١٣.

٤١- (هيگل) دراسات في فلسفة التاريخ الص ٢١-٣٢. اقتباس بولوك، المرجع نفسه ص ٣٥١.

متواليات مخيفة من القتل والحرق والاعتصاب والتعذيب بالفرح نفسه في قلوبها، بالرضى نفسه في أنفسها كأنما هي منهمكة في مرح طالب مدرسة... عندما يكون المرء قادراً على إلقاء الأوامر، عندما يكون "سيداً" بطبيعته، عندما يكون عنيفاً في قوله وعمله، فما هي أهمية العهود عنده؟... إن اردنا الحكم على الأخلاق حكماً صحيحاً، فعلياً أن نستبدلها بمفهومين مستعارين من علم الحيوان: تدجين الوحش وتوليد نسل خاص^(٤٢).

هذه التعاليم التي بلغت غايتها القصوى بـ(نيتشه) ولهج بها عدد كبير من الألمان الأقل منه شهرة يبدو أنها استهوت هتلر^(٤٣):

عبقريّ ذو رسالة هو فوق الشرائع. لا يمكن أن تشدّه قيود الأخلاق "البرجوازية" لذلك فعندما تحين ساعة العمل يستطيع هتلر تبرير أفسى الأعمال وأشدّها وحشية ودموية، من خنق حرية الفرد الى ممارسة عمل السخرة الوحشيّ الى فظائع معسكرات الاعتقال الى المذبحة التي دبرها لأتباعه في حزيران ١٩٣٤ الى قتل اسرى الحرب، الى ذبح اليهود بالجملة.

عندما أطلق سراح هتلر من سجن لانديسبرگ قبيل عيد الميلاد بخمسة أيام (١٩٢٤) وجد وضعاً قد يظنر أي شخص آخر غيره الى الانسحاب من الحياة السياسية. فقد حلّ الحزب ومنعت مطبوعاته والزعماء السابقون يتناحرون فيما بينهم ويبتعدون عن العمل، وحُظر عليه بالذات أن يخاطب في الاجتماعات العامة والأنكى من هذا كله أنه كان يواجه مشكلة إبعاده الى وطنه النمسا. فقد اوصت الشرطة البارقارية توصية قوية بذلك في تقرير رفعتة الى وزارة الداخلية. حتى العدد الكبير من رفاقه القدامى كانوا متفقيين في الفكرة العامة وهي أن هتلر انتهى وسيضيع في زوايا النسيان كما ضاع الكثير من ساسة الأقاليم الذين استمتعوا بشهرة قصيرة الأمد أثناء سنوات القحط العجاف عندما بدا وكان الجمهورية ستخرّ على ركبتيها^(٤٤) متقوضة.

لكن الجمهورية صمدت للعواصف والأنواء، والآن بدأ يدبّ فيها الانتعاش. فأثناء ما كان هتلر في السجن استدعت الحكومة أحد السّخرة الماليين وهو (الدكتور يلمار هوراس كريلي شاخت Dr. Hjalmar Horace Greeley Schacht) لمعالجة استقرار العملة فنجح. وانتهى عهد التضخم المهلك. وخفف مشروع داوس Dawes عبء التعويضات عن البلاد، وبدأت رؤوس الأموال تتدفق من أمريكا. واخذ الإقتصاد الوطني يتماثل الى الشفاء بسرعة. وكان نجاح (شترزيمان) في سياسة التصافي مع الحلفاء مطرداً وشرع الفرنسيون يجلسون على الروهر ووضع في المداولة ميشاق ضمان قد يمهد الطريق الى تسوية

٤٢- وردت في [الرايخ الثالث] طبعة باومنت الص ٤-٢٠-٢٠٥ من كتابي نيتشه "في الإرادة والقوة Der Wille Zur Macht" و"أسس الخلق Zur Genealogie der Morale".

٤٣- انظر ما سبق عن المقتبسات في كفاحي.

٤٤- في ١٩٢٩ كتب الأستاذ (م. ا. غيروثفول M. A. Gerthofol) ناشر يوميات اللورد دابرنون D'Aberton حاشية تعقيبية على مؤامرة مشرب البيرة. فبعد ذكره الحكم على هتلر بالسجن خمس سنوات اضاف يقول: "أخيراً أخلّي سبيله بعد ستة أشهر. مع عفو مشروط عن البقية وبهذا ضاع في زوايا النسيان" كان اللورد دابرنون السفير البريطاني في برلين من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٦ وعمل بحذق عظيم لتقوية جمهورية فايمر.

أوروبية عامة في (لوكارنو Locarno) ودخول ألمانيا الى عصبة الأمم. ولأول مرة بعد الهزيمة، بعد ست سنوات من التوتر والفوضى والكساد بدأ الشعب الألماني يحيا حياة عادية هادئة. وقبل اخلاء سبيل هتلر بأسبوعين زادت أصوات الديمقراطيين الإشتراكيين -أو مجرمي تشرين كما يسميهم- بثلاثين بالمائة (ما يعادل ثمانية ملايين صوت تقريباً) في الإنتخابات العامة مما شد من أزر الجمهورية. أما النازيون الذين خاضوا الإنتخابات بقائمة موحدة مع جماعات قومية شمالية باسم "حركة القوميون الإشتراكيين للتحرر الألماني" فقد انخفضت أصواتهم من مليونين في ١٩٢٤ الى اقل من مليون في كانون الثاني. وبدت النازية كأنها تحتضر. كانت قد نمت نمواً طفيلياً على مصائب البلاد، والآن بدا مظهر البلاد وضاً لامعاً على حين غرة فاذا بالحركة تضمحل بسرعة أو هذا ما اعتقده أغلب الألمان والمراقبين الأجانب.

أما هتلر فلا! فهو ليس ممن يسلمون بالاخفاق بسهولة وهو يعرف كيف يصبر. عاد بمسك بخيوط حياته في شقته ذات الغرفتين في الطابق الأعلى من رقم ١٤ تيبير شتراسه بمونيخ طول أشهر شتاء ١٩٢٥ وبمجيء الصيف انتقل الى مختلف المشارب في (أوبرسالزيرك) شمال برختسجادن. وأفادته تأملاته في الكوارث وفي الماضي القريب وكسوف شمس الحاضر لتقوية عزماته ليس غير. ووفر له سجنه وقتاً كافياً لتحليل ماضيه وإنتصاراته واخطائه، فضلاً عن ماضي شعبه الألماني المصطخب وإنتصاراته واخطائه وأصبح الآن يراها بشكل اوضح. وولد فيه مجدداً شعور محرق برسالته -لنفسه ولألمانيا- استبعدت منه كل الشكوك. وفي فورانه الروحي هذا، اكمل إملاء سبيل من الالفاظ أصبحت الجزء الأول من (كفاحي) ثم اشفعها بالمجلد الثاني. مخطط لما دعاه اليه الله في هذا العالم المتلاطم ولفلسفة "الحياة" التي تحكمه وتحفظه، كل ذلك دون في كتاب مطبوع لا يصعب على المرء أن يتأمل محتوياته. تلك الفلسفة مهما بلغت من الخيال، فلها جذورها العميقة في الحياة الألمانية كما رأينا. ربما بدا المخطط محالاً لأغلب عقليات القرن العشرين حتى في ألمانيا. إلا أنه يحوي ايضاً، منطقاً معيناً. أنه يعرض رؤيا ونبوءة. ويتقدم بإستمرارية التاريخ الألماني - وإن لم يتبين ذلك في حينه إلا للقلّة. انه يشير الى الطريق المؤدي الى المستقبل الألماني المجيد.